مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (٨)، العدد (١)، ص ص ٣٥٥-٤٠٦، (محرم ١٤٣٦هـ/ أكتوبر ٢٠١٤)

الذات والآخر في روميات أبي فراس الحمداني

د. أمل محمد نصير، و د. إبراهيم حسن الربابعة
الجامعة الأردنية
عمان – الأردن

ملخص البحث. تعالج هذه الدراسة صورة الذات والآخر في روميات أبي فراس الحمداني، إذ قامت بالكشف عن المدى الذي بلغه أبو فراس في اعتزازه بذاته، واستعلائه على وجع الأسر، وظلم ذوي القربى، وكِبر أعدائه الروم، وكثرة الحسّاد والشامتين؛ مما دفعه إلى الفخر بنفسه فخرا عظيما، أبان فيه عن أخلاقه العالية، وأظهر سمو نفسه، كما أظهر قدرة كبيرة على المخاتلة، والتحايل على الآخر المخالف له، فأذاقه النقد اللاذع، وعرّض به، وسخر من تصرفاته، وأقواله، أما الآخر الموافق له، فقد تمثل في بعض أصدقائه، وعدد من أفراد أسرته، ولاسيما والدته، وقد بدا رقيقا في شعره الذي قاله فيهم مناجيا أو راثيا.

استطاع الشاعر إظهار معاناته وآلامه، وكشف صورة الآخر من خلال وسائل فنية مهمة، من أهمها: التضاد والرمز والمفارقة، إذ كشف من خلال أسلوب التضاد، الصراع والتنافر بينه وبين الآخر المخالف له، أما الرمز، فقد أتاح له التصرّف بحرية في انتقاد تصرفاته، والتعريض به، دون أن يكون مضطرّاً إلى قول كل ما يريد قوله بصورة مباشرة.

وأعطت المفارقة الشاعر فسحة كبيرة ليتهكم، ويسخر، وينتقد سلوك الآخر المخالف له، في إطار من الفن الشعري الجميل.

مقدمة

روميات أبي فراس هي تلك الأشعار التي قالها الشاعر في أسره في بلاد الروم، وقام معظمها على الشكوى من جرحه في الأسر عند أعدائه، وعتاب سيف الدولة على عدم الإسراع في مفاداته، وتخليصه من الأسر، والشوق والحنين لبلاده، وأهله، والفخر بماضيه، كما عتب على أصدقائه، وشكا منهم لتنكّرهم له في محنته.

قام الحمدانيون ببطولات عظيمة ضد الروم، وحققوا انتصارات كبيرة عليهم، إلا أنهم في المقابل عاشوا في خلاف وشقاق فيما بينهم، إذ قبض أبو تغلب بن ناصر الدولة على أبيه، وأرسله إلى قلعة كواشي الواقعة شرقي الموصل(١)، وأبقاه في حبسه هذا إلى أن توفاه الله. (٢) كما قام حمدان بن ناصر بقتل أخيه أبي البركات،(٣) ولما دبّ النزاع بين الأشقاء استعان بعضهم بالأعداء، إذ لاطف أبو تغلب طاغية الروم، وهادنه وقدّم له الميرة.(٤) قتل ناصر الدولة عمّه أبا العلاء سعيداً والد أبي فراس.(٥) بقيت علاقة أبي فراس بناصر الدولة قاتل أبيه، وشقيق سيف الدولة سيئة للغاية، إذ كان يعرّض به في شعره، وينفث سموم الكراهية في وجهه. ولعل هذه الخلافات كانت السبب الرئيسي في عدم قدرتهم على إقامة دولة عربية موحّدة، تقف في وجه الطامعين بها من الروم وغيرهم، فقد ذهب كثير من جهودهم عرض الرياح نتيجة لصراعهم على السلطة، وطموح كل واحد منهم إلى الحكم.(٦)

---

(١) الحموي، (ياقوت الحموي)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٤، ص: ٤٦٨.

(٢) ابن الأثير، (عز الدين بن الأثير)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، ج٨، ص: ٥٧٩.

(٣) المصدر السابق، ج٨، انظرص:٥٩٥، وص: ٥٨٠.

(٤) انظر في ذلك كله:عبد المهدي،(عبد الجليل عبد المهدي)، أبو فراس الحمداني حياته وشعره، مكتبة الأقصى، عمان- الأردن،١٩٨١.ص: ٢٨.

(٥) الكامل،ج٨، ص: ٣٠٩-٣١٠.

(٦) انظر جوانب من هذا الصراع في متز، (آدم متز)، الحضارة الإسلامية، ترجمة:محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧ ج١، ص:٢٣.

كان سيف الدولة أشهر أمراء بني حمدان، وواسطة العقد فيهم، وقد قال فيه أحد المستشرقين: " شغل سيف الدولة أذهان المؤرخين والكتاب والشعراء في القرن العاشر، فما إن تقرأ صفحة لمؤرخ بيزنطي، أو قطعة لكاتب من كتّاب ذلك العصر، أو قصيدة من قصائد شاعر من شعراء العرب، أو الرومان حتى يستهويك الوصف، والحديث عن هذا العدو الجذّاب الذي حارب الإمبرطورية البيزنطية ... كان سيف الدولة عظيما في انتصاره كما كان عظيما في انكساره، وكانت إمبرطورية البيزنطيين التي ملكت العالم القديم تخافه منتصرا، وتجلّه منكسرا".(٧)
أخذ سيف الدولة أبا فراس وأمه بعد مقتل أبيه معه إلى حلب، إذ كان متزوجاً من شقيقته، فأشرف على تربيته، وأعدّه إعداداً كافياً من الناحية العسكرية والثقافية سالكاً في ذلك كلّ السبل التي جعلت منه فارساً مغواراً، وشاعراً كبيراً، وكان أبو فراس يعترف بهذا الفضل، ويقرّ به لسيف الدولة في كلّ الظروف، إذ كان وفياً له حتى وهو في أسره يعاتبه على تأخره في مفاداته.
وكانت علاقة أبي فراس بسيف الدولة في البداية متينة يغلفها الإعجاب والاحترام والتقدير من جانب أبي فراس، والعطف والرعاية من جانب سيف الدولة، وقد خاض أبو فراس الحروب العديدة إلى جانب سيف الدولة، وكان ساعده الأيمن فيها، حتى شركه في مدائح الشعراء.(٨)
أصبح أبو فراس الشخصية الثانية في المجتمع الحمداني بعد سيف الدولة، ولعله في مرحلة تالية أصبح نداً له يتصف بمثل صفاته، وربما طمح للرياسة والإمارة مثله مما أثرّ في العلاقة بينهما، أو على الأقل هذا ما خشيه سيف الدولة، ولاسيما مع كثرة الوشاة والحسّاد الذين قاموا بدور أساسي في توتر العلاقة بينهما كما سيأتي.
ويبدو أنّ فتور العلاقة بين أبي فراس وسيف الدولة يعود إلى مرحلة ما قبل الأسر، فقد حصلت مواقف عديدة لم يقف سيف الدولة فيها

---

(٧) الكيالي، (سامي الكيالي)، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩، ص: ١١٢
(٨) الحمداني، (أبو فراس الحمداني)، ديوانه، جمع ونشر سامي الدهان، بيروت، ١٩٤٤، ج١، ص: ١٣٩-١٤٠.

إلى جانب أبي فراس على غير ما كان يفعل من قبل، فخاب ظنّ أبي فراس، وقد قال في إحداها:

قد كنتَ عُدتي التي أسطو بهـــا ويدي إذا اشتدّ الزَّمانُ وساعـــدي
فرُميتُ منكَ بغير ما أمَّلْتُـــهُ والمرءُ يَشرَقُ بالزُّلالِ البـــاردِ
لكنْ أتتْ دونَ السرورِ مَســـاءةٌ وُصلتْ لها كفُّ القَبولِ بساعـــدِ
فصبرْتُ كالولدِ التَّقي لبـــرِّهِ أغضَى على ألمٍ لضَرْبِ الوالـــد
ونقضتُ عهداً كيف لي بوفائـــه وسُقيتُ دونكَ كأس همٍّ صـــارد(٩)

تصوّر هذه الأبيات شيئاً من التحوّل في العلاقة الحميمة التي كانت تجمع بين سيف الدولة وأبي فراس، ويبدو الشاعر فيها يحمّل ابن عمّه مسؤولية هذا التحوّل، إلا أنه كان يتقبّل الأمر منه تقبّل الولد من الوالد كما يقول، ويصبر على ما يقصّر به سيف الدولة في حقّه، ففي قوله:(والمرءُ يَشرَقُ بالزُّلالِ الباردِ) مفارقة تكشف عن الموقف المفارق لسيف الدولة في تعامله مع الشاعر، فهي معاملة غريبة، وغير متوقعة، إذ لا يُتوقع أن يشرق الإنسان بالماء الصافي، فالأصل في علاقتهما أن تكون رائقة لا يكدرها شيء؛ لأنّ سيف الدولة كان السند الذي يعتمد عليه الشاعر، ويتوقع منه الدعم والتأييد؛ لذا فإنّ هذا الموقف الغريب شكّل خيبة أمل له أفرزت توترا نفسيا حادا لدى المتلقي مثلما هي لدى الشاعر.

ترجح المقارنة بين قيم كل من الأميرين كفّة أبي فراس كما في قوله:(وصلت، صبرت، الولد التقي، أغضى عن الم ضرب الوالد...) أما سيف الدولة، فقد جاء موقفه مناقضا تماما لموقف الشاعر كما يبدو من قوله:(رميت منك، المرء يشرق بالماء الزلال، نقضت عهدا، سقيت دونك كأس همّ)، فهذه المواقف جميعها تكشف عن موقفين متضادين لكل من سيف الدولة وأبي فراس على صعيد اللغة كما هو على صعيد الواقع المعيش.

---

(٩) ديوانه، ج٢، ص:٧٣.

تشير بعض الحوادث الأخرى إلى ما صار بينهما من فتور في العلاقة، وذلك أنّ أبا فراس امتنع عن اختيار فرس له من الخيول التي عرضها سيف الدولة على عدد من أقربائه بينما اختار منها بنو عمّه جميعاً، فوجد عليه سيف الدولة.

يؤكد ما كان بين الأميرين من جفاء في بعض الأحيان أنّ سيف الدولة كان كثير العتاب لأبي فراس؛ إذ يُلمس ذلك من خلال شعر أبي فراس نفسه. قال:

أيا عاتباً لا أحمِلُ الدهرَ عَتْبَـــهُ عليَّ ولا عندي لأنْعُمِـهِ جَحْـــدُ

سأسكتُ إجلالاً لعلمِكَ أنني إذا لم تكن خصمي ليَ الحججُ اللُّدُّ(١٠)

لعل كلمتي (سأسكت، وخصمي) تفصحان عن جانب من التوتر في علاقة هذين الأميرين، إذ يبدو أن الشاعر كان يشعر بمضايقة سيف الدولة له، وهو يضطر للسكوت على ذلك، أما كلمة الخصومة، فتؤكد وجود الخصام بالفعل بينهما في مرحلة سابقة لأسر أبي فراس، لكن، وعلى الرغم مما ذكرت، فإنّ الأمور بقيت مجرد خلافات ضمن البيت الواحد، وإنّ أبا فراس كان يتحملّها إجلالا لابن عمه، ووفاء لما له عليه من أيادٍ بيضاء.

يبدو أنّ سيف الدولة كان جاداً في حذره من أبي فراس لما رأى من فروسيته، وإعجاب الناس به، وما حققه من انتصارات على الروم، مع ما كان عليه من شباب وشاعرية واعتداد بالنفس، ولعل بذور هذا الحذر بدأت في مرحلة سابقة لأسر أبي فراس، فقد استخلفه على الشام، لكنّ أبا فراس لم يشعر بالراحة هناك، ولعله فهم الأمر على أنه محاولة إبعاد له عندما رأى سيف الدولة قد تفرّد بالوقائع مع جماعة من الجند، فكتب إليه أبو فراس يطلب منه ألا يشغله بأمر الشام، ويغيّبه عن ساحات البطولة.قال:

لا تَشْغَلّني بأمرِ الشامِ أحرسُـــهُ إنَّ الشآمَ على مَن حلّهُ حَـــرَمُ

فإنَّ للثَّغرِ سُوراً من مَهابتِـــهِ صُخورُهُ مِن أعاديَ أهلهِ قِمَـــمُ

لا يَحرِمنّيَ سيفُ الدينِ صُحبتـَهُ فهْيَ الحياةُ التي تحيا بها النَّسَـمُ

---

(١٠) نفسه،ج٢، ص: ٩٧.

وما اعترضت عليه في أوامـره لكن سألت ومن عاداته نَعَـمُ(١١)

تكشف كلمة (أحرسه) عن إحساس الشاعر بمحاولة الإبعاد هذه؛ لأنّ أبا فراس كان يشعر أنه لم يخلق لهذه الوظيفة الأمنية، أعني حراسة الثغور، إذ غالبا ما يكلف بها جماعة من المبتدئين، أو ضعاف الجسم، أو الذين ليس لديهم خبرة في مقارعة الأعداء، وهو لم يكن أياً من هؤلاء، بل كان فارسا من الدرجة الأولى، يرى مكانه في مهاجمة الأعداء، والوقوف في وجههم، أما حماية الثغور، فإنّ لها أصحابها، لكنه لم يكن يعلن ذلك في وجه سيف الدولة، أو يشعره بتمرّده عليه، بل كان يغلّف رفضه، وانتقاده لتصرفاته بغلاف من التواضع، والرجاء، إذ توسّل أبو فراس باللطيف من القول، والحسن منه لتوصيل رسالته لابن عمه الأمير، وسواء أكان هذا كلّه احتراماً وتقديراً لسيف الدولة لفضله عليه، أم كان لحكمته وحسن سياسته من أخذه إياه باللطف والحسنى؛ ليحقق ما يريد من مطامح، فإنّ الأمر بقي بينهما على هذا المستوى من الخلاف والعتاب.

تربّى الفتى الحمداني على قيمتين أساسيتين هما الشجاعة والاعتداد بالنفس، فقبلت منه الشجاعة، وعززت بصورة كبيرة جداً، ربما؛ لأنها تخدم الحاكم والقبيلة، وقبل منه الاعتداد بالنفس، والتميّز بالقدر الذي أراده سيف الدولة، أي بالقدر الذي لا يسمح لأبي فراس بالتميّز عنه.

لم تبق الأمور بين الأميرين عند هذا الحدّ، بل أصبحت حالة متقدمة من الخلاف الواضح والمعلن بعد أسر أبي فراس، وتأخر سيف الدولة في مفاداته، وهنا بدأ الشاعر بانتقاده لسيف الدولة، والتعريض به الأمر الذي وصل عنده إلى حدّ الهجاء المبطّن في بعض الأحيان كما جاء في روميّاته.

شكّلت روميات أبي فراس الحمداني مجالاً خصباً لإضمار كثير من مظاهر العلاقة المتوترة التي تكشف عن جوانب من الصراع بين

(١١) نفسه، ج٣، ص: ٣٥٨.

الشاعر والآخر المخالف له، الذي مثّله سيف الدولة بشكل خاص، ثمّ أعداؤه الروم، والحساد والشامتون.

أما الآخر الموافق له، فقد تمثّل في أصدقائه وبعض أفراد أسرته، ولاسيما والدته، من هنا سأقوم في هذا البحث بدراسة صورة الذات، ثمّ صورة الآخر سواء أكان مخالفا أم موافقا له، كما برزت في الروميات، من خلال محورين أساسين هما: الذات والآخر.

أولا: الذات

أعني بها ذات الشاعر كما ظهرت في رومياته، إذ بدت في الغالب سامية وقوية ومشرئبّة، في غاية عنفوانها بالرغم من ألم الغربة، ووجع الجرح، فقد كان كثير الاعتزاز بنفسه، يفتخر بأخلاقه العالية، وقيمه المتميزة، مثل الشجاعة في ساحات المعارك، والعفّة والكرم، وكلها أخلاق عظيمة، وكان يحاول إظهار تفرّده، وتصوير ذاته بأنها الأعلى، والأكثر قدرة على كشف الآخر غير المتصالح معه، وتعريته لبيان عيوبه، وكشفها، مظهراً استعلاء كبيراً كما في قوله:

وإني لجرارٌ لكل كتيبـــــــة معودةٍ أن لا يُخلّ بها النصـــر
وإني لنزالٌ بكل مخوفـــــةٍ كثير إلى نُزّالها النظرُ الشـــزرُ
فأظمأ حتى ترتوي البيضُ والقنـــا وأسغبُ حتى يشبعَ الذئبُ والنسـرُ
ولا أُصبِحُ الحيَّ الخلوفَ بغـــارة ولا الجيشَ ما لم تأتهِ قبليَ النُـذرُ
ويا ربّ دارٍ لم تخفني منيعـــةٍ طلعتُ عليها بالردى أنا والفجــرُ
وحيٍّ رددتُ الخيلَ حتى ملكتُـــهزيما وردتني البراقِعُ والخُمْــرُ
وساحبة الأذيال نحوي لقيتهـــا فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعــرُ
وهبتُ لها ما حازه الجيشُ كلّـــهورحتُ ولم يُكشَفُ لأثوابها سترُ(١٢)

يبدو توهج الذات عند الشاعر في أوجه، وذلك من خلال تكراره لضمير المتكلم أكثر من خمس عشرة مرة معددا صفاته الإيجابية، وأعماله البطولية، فتحدّث عن أخلاقه في الحروب، وهي أخلاق فارس من دون ريب، فهو لا يُغير على حي ليس فيه رجال يدافعون عنه، ولا يدخل معركة قبل أن ينذر جيش الأعداء؛ ليستعدّ للقائه، وهذه جميعها أخلاق اجتماعية ملتزمة، فليس من عادة الفرسان مهاجمة النساء دون

(١٢) نفسه، ج٢، ص:٢١٢.

الرجال، وهذا يدلّ على الثقة المطلقة بالنفس التي تدفعه للنزال العادل، وهو واثق من النصر الذي سيحققه في أيّ معركة يخوضها؛ لأنه قادر على جلب النصر مهما كان الجيش الذي يواجهه قوياً، وهو مع كل شجاعته التي لا يقف في وجهها شيء يتميز بأخلاق الفرسان، تهزمه نساء الحي الذي يهاجمه، إذ إنه يحترم المرأة مبتعدا في علاقته معها عن مجافاة اللقاء، ووعورة الخطاب، ولا يرضى أن يواجهها إذا ما رجال حيها تركوها لمصيرها تدافع عن نفسها، وفروا من وجه الشاعر وجيشه، بل يقضي لها حاجتها مهما غلت بنبل وترفّع عن خدش حيائها.

هذا الألق البطولي الذي يحاول الشاعر أن يضفيه على ذاته، يعزز ذاتيته، وتميّزه من غيره من المحاربين الذين قد يفعلون عكس فعله في سبيل المغانم المادية، في حين يترفّع هو عنها في سبيل مغانم أكثر سمواً، مذكّراً إيانا بأخلاق الفرسان. لقد شكّل موقف الشاعر المفارق من السبي مفارقة مهمة في الكشف عن الذات؛ إذ جاء على غير المتوقع؛ ليكشف عن أخلاق الشاعر ونفسيته وقيمه العالية، فإذا كان يتعامل مع نساء عدوه، ومغانم الحروب بمثل هذا السمو، فلا شك أنه سيكون أكثر نبلا وسموا مع قومه، وربيبه، وابن عمه سيف الدولة. فسرد هذه البطولات هو تأكيد حسن أخلاق الشاعر وأعماله العظيمة التي أوصلته إلى مصاف العظام، ومن ثَم تنبيه لسيف الدولة بضرورة تخليصه من الأسر الذي وقع فيه، والذي لم يكن من باب الضعف، أو التقصير، وإنما من باب القضاء والقدر.

يذكّر الشاعر ابن عمّه بما يمليه عليه الواجب من خلال تذكيره له بإنجازاته القديمة قبل الأسر، ليس تجاه ابن عمه حسب؛ وإنما تجاه جندي شجاع من جنوده الأوفياء، وبطل مخلص له ولقبيلته ولأمته. وما محاولة بعث الماضي إلا أمر آخر، يتذكّر الشاعر من خلاله ما كان له فيه، ربما ليصبّر نفسه ويعزيها، وربما من باب الانتقام من الحاضر الذي يعيش؛ فنراه يكتب إلى سيف الدولة وهو بخرشنة لما اقتيد إليها أسيراً جريحاً، مذكّراً خصومه بأمجاده السابقة فيها:

إن زرتُ (خرشنة) أسيراً ... فلَكَم أحطتُ بها مُغيرا
ولقد رأيتُ النارَ تَنتهِبُ ... المنازلَ والقصورا

ولقد رأيتُ السَّبْـــيَ يُجْـــــ لَبُ نحونا حُـوًّا وحُـــورا(١٣)

المفارقة بين موقف الشاعر من (خرشنة) في الماضي والحاضر كبيرة جدا، فقد عرفها في الماضي وهو مُغير عليها، فكان محيطاً بها، كناية عن القدرة والسيطرة. أما الآن، في الحاضر، فقد زارها وهو أسير، وفي كلمة (زرت) مفارقة أخرى مدهشة، فالإنسان لا يزور المكان الذي يُقتاد أسيرا إليه، ولعله توقّع أنّ الأسر سيكون لوقت قصير، حسب، لا دار إقامة لمدة طويلة.

إنّ الأفعال (زرت، أحطت، رأيت مكررة مرتين)، وكذلك الضمير في(نحونا) جميعها ترتبط بالذات، وتتمحور حولها، لكنها مرتبطة بالماضي، عندما كان الشاعر في أوج انتصاره، أما الآن فقد تغيّر الحال، وتحوّل هذا البطل إلى أسير، لكنه بقي إنسانا نبيلا في سلوكه في كل الظروف والأحوال.

كان اعتزاز الشاعر بنفسه وسيلة من وسائل حفظ توازنه في ظل محنة الأسر، ووسيلة مساعدة لتجاوز آثاره.فقد قال مفتخراً ومؤكداً احتماله لغربة الأسر وألمه بالرغم من صعوبته الكبيرة؛ وذلك لتميّزه عن الآخرين:

يّمسي وكلّ بلادٍ حلّها وطــنٌ وكلُّ قومٍ غَدا فيهم عشائـــــرُهُ
فكيفَ تَنْتصفُ الأعداء من رجلٍ العزُّ أوَّلُهُ والمجدُ آخـــرُهُ(١٤)

وقال:

أيُدرِكُ ما أدركتُ إلا ابـنُ همَّــةٍيمارسُ في كسبِ العُلا ما أمــارسُ
يَضيقُ مكاني عن سِوايَ لأننـــي على قمّة المجدِ الموثَّلِ جالــسُ(١٥)

لم يكن استعلاء الذات في شعر أبي فراس من فراغ، بل هو متوقع منه في ظل ظروفه، وقد أكدّ ذلك من خلال تذكير الآخرين باستمرارية وجوده وتميّزه، وحاجتهم إليه. معتمدا في ذلك على انزياحاته الأسلوبية المتعددة كما في قوله: (العز أوله، والمجد آخره، على قمة المجد المؤثل

(١٣) نفسه، ج٢، ص:٢٠٨.

(١٤) نفسه، ج٢، ص:١٨٣.

(١٥) نفسه، ج٢، ص: ٢٣٥.

جالس)، فهي جميعها تثير الدهشة والانفعال، وهذه السمة الأسلوبية هي "انتهاك أو خرق للمألوف، إذ إنّ الجوهر الذي تقوم عليه هو نقض قانون النثر وكسره".(١٦) فهو بما فيه من بعد جمالي نتيجة لعنصر المفاجأة التي تحدث نوعا من التوتر عند المتلقي، يساعد الشاعر على إيصال تجربته الانفعالية بصورة كاشفة عما في نفسه المتألمة تحت وطأة ألم الأسر، وإحساسه بتخلي الآخرين عنه.

ظهر استعلاء الذات عند أبي فراس بصورة كبيرة أيضا، من خلال إحساسه بحاجة قومه له حيث يقول:

سيذكرُني قَومي إذا جدَّ جِدُّهـمْ وفي الليلةِ الظَّلماءِ يُفتقَدُ البَـــدْرُ
ولو سَدَّ غَيري ما سَددْتُ اكتفَوْا بهِ وما كان يَغْلو التِّبْرُ لو نَفقَ الصُّفْرُ(١٧)

تبدو ذات الشاعر هنا مالكة فاعلية كبيرة من خلال ثقتها الكبيرة بنفسها، وشجاعتها، من خلال ما قدّمه الشاعر لقومه في الماضي، وحاجتهم إليه في المستقبل، من هنا يحاول الشاعر في هذين البيتين إقناع ابن عمه بحاجته إليه في المستقبل في الحروب والشدائد، والوقوف إلى جانبه في المحن، وكأنّ الأمر أصبح مقايضة بعد أن أخفق في إقناع سيف الدولة بمفاداته، من خلال استعطافه، وتذكيره بالماضي الجميل، فلو فكّ أسره لرأى منه ما يسرّه في الدفاع عنه، وعن قومه كما كان في الماضي، ولعله ينبهه أيضاً من خلال الشطر الثاني من البيت الثاني بعدم جدوى الآخرين من حوله سواء أكانوا مِن الذين يحرضونه على أبي فراس، أم من غيرهم، فلا أحد على شاكلته، فهم مجرد أقنعة، وعندما يحين الجدّ، فلن يكون لهم نفع، وليبدو الشاعر أكثر إقناعا، وتأثيرا في توصيل تجربته اعتمد على الحكمة كما في الشطر الثاني لكلا البيتين السابقين، إذ فاجأ المتلقي بها مما أثار المتعة والانفعال لديه، وجعله أكثر

(١٦) إيفانوكس،(خوسيه إيفانكوس)، نظرية اللغة الأدبية، ترجمة حامد أبو حامد، مكتبة غريب، د.ت، ص: ٣٥.

(١٧) ديوانه، ج٢، ص: ٢١٣-٢١٤.

اقتناعا بموقفه؛ "لأن من أهداف اللغة الشعرية إثارة انفعال المتلقي وإمتاعه وإكسابه فائدة مهما كانت طبيعة هذه الفائدة".(١٨)

وقد يتحوّل أبو فراس في بعض رومياته إلى الاعتزاز بقبيلته قائلاً:

ونحنُ أناسٌ لا َتوسُّطَ عندنـــا لنا الصَّدرُ دونَ العالمينَ أو القَبــرُ
تَهونُ علينا في المعالي نفوسُنـــاومَن خطَب الحسناءَ لم يغلها المهر
أعَزُّ بَني الدُّنيا وأعلى ذوي العُـلا وأكرمُ مَن فوق الترابِ ولا فَخْرُ(١٩)

كان الإعجاب بالقبيلة المظهر الثاني البارز في مجال الفخر الذات عند أبي فراس؛ أي (النحن) القبلية، وذلك من خلال تركيزه على مدحها، وهذا ليس بغريب على أبي فراس الذي كان شديد الاعتزاز بقبيلته كثير الفخر بها، وتبدو قيمة هذه الأبيات التي ختم بها قصيدته الرائية في تصوير إحساسه إزاء الموقف السلبي الذي وقفه منه ابن عمه، وزعيم الحمدانيين آنذاك، وبعض أفراد عشيرته الآخرون الذين حرّضوا سيف الدولة على عدم افتدائه، فضلا عمّا كان يقوله الروم من أنّ ابن عمه، وعشيرته تخلّت عنه محاولاً من خلال هذا الفخر ما يأتي:

أولاً: تذكير عشيرته بالمجد الذي كان لقبيلتهم تغلب العربية؛ إذ كانت من أعظم قبائل العرب شأناً منذ أيام الجاهلية، وقد كان لها دور كبير في التاريخ الإسلامي في منطقة الجزيرة وغيرها، ولاسيما فرع الشاعر أبي فراس الحمداني الذي احتلّ مكانة عظيمة في القرن الرابع للهجرة، وكان له تأثير كبير في حروبها مع الروم، ومثل هذه المكانة تحتّم عليهم الانصراف عن التنافس والتخاصم فيما بينهم.

ثانيا: التصدي لمن كانوا يتعرضون لعشيرته وأقربائه بالغمز مذكّراً إياهم بمكانة قبيلته منذ القديم، وأنه ما زال يقف إلى جانب قومه مفتخراً

---

(١٨) السيد،(نور الدين السيد)، مفارقة الخطاب الأدبي للمرجع، (تحليل الخطاب العربي- بحوث مختارة)، مراجعة صالح أبو إصبع، تحرير غسان عبد الخالق،، المؤتمر العلمي الثالث، جامعة فيلادلفيا –كلية الآداب، أيار، ١٩٩٧. ص: ٣٠٢.

(١٩) ديوانه، ج٢، ص: ٢١٤.

بهم بالرغم مما كان منهم من تقصير بحقّه، وهي ثقافة متوارثة في الشعر العربي، ألا وهي الوقوف إلى جانب القبيلة ضد الآخر، إذا ما أخطأت معه، أو جارت عليه. وتبرز هذه الثقافة بشكل خاص في قوله:

إلى الله أشكو ما أرى من عَشـائرٍ إذا ما دَنَوْنا زادَ جاهِلُهُمْ بُعـــدا

وإنَّا لتَثْنينا عواطـفُ حِلْمِنـــا عَليهمْ وإن ساءَتْ طرائقُهمْ جِـدّا

ويمنعُنا ظُلمَ العشيرةِ أنَّنـــا إلى ضُرِّها لو نَبْتغي ضَرَّها أهـدَى

وإنا إذا شئنا بِعادَ قبيلـــةٍ جَعلنا عِجالاً دونَ أهلِهِمُ نجـدا(٢٠)

إذا كانت الثقافة هي ما يربي الوجدان العام للأفراد، ويمنحهم النسق الذهني والسلوكي، وبما أنّ الشعر كان ديوان العرب به عرفت المآثر" وهو ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون" (٢١)، فهذا يعني أننا أمة استمدت كثيراً من عناصر ثقافتها من الشعر، إذ كان إلى عهد قريب أحد أهمّ منابعنا الثقافية التي اعتمدنا عليها في بناء شخصيتنا وعلاقاتنا مع ذاتنا ومع الآخر، وهذا ما برز بشكل جلي في شعر أبي فراس.

من خلال تصوّرات الباحث للعلاقة بين الخطاب الشعري والسلطة المهيمنة يلاحظ أنّ العلاقة بين الخطاب الشعري في الأدب العربي، وبين السلطة التي ترعى هذا الخطاب لا يخضع في كليته لمفهوم الهيمنة المطلقة؛ إذ إنّ القراءة الدقيقة لبعض نماذج شعر العتاب والمديح مثلاً تثبت أنها تضمر في باطنها نقداً للسلطة وممارساتها، كما يقدّم لنا صورة النسق المضاد الذي يرفض هذه الممارسات التي تودّ تشكيله بالحجم الذي تريد، وبالشكل الذي تريد، وإلا فالنفي جزاؤه الذي ينتظره، والإلغاء مصيره؛ مما جعل الشاعر أحياناً يشكّل نسقاً مضاداً يوظّف فيه قدراته الفكرية، ومواهبه الشعرية، ولغته الأدبية الجميلة في كشف آليات القمع

---

(٢٠) المصدر السابق،ج٢، ص: ٧٤.

(٢١) الجمحي،(محمد بن سلام الجمحي)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة،١٩٩٠، ج١، ص: ٢٤.

السلطوي المبني على التفرّد والأنا الواحدة، ورفض التعددية والشورى؛ مما يفيد الشاعر في الحفاظ على توازنه، ووجوده في وجه السلطة القمعية، حتى وإن كان ممثل هذه السلطة هو ابن عمّه، وهو ما يلاحظ في الروميات.

برزت ذات الشاعر، وعنفوانه وقوته بصورة واضحة أيضا، في خطابه لأعدائه الروم؛ إذ جاء صوته حادا غاضبا حين كان يتعرض لموقف عدائي، أو يحاول أحد أعدائه تحديه. قال متحديا رومان الثاني لما اتهمه بأنه وقومه العرب لا يعرفون أصول الحرب، مؤكدا له معرفته الأكيدة لهم من خلال الحروب الكثيرة التي خاضوها معهم، وانتصروا فيها عليهم:

أَلَم تُفنِهِم قَتلاً وَأَسراً سُيوفُنـــا وَأُسدَ الشَرى المَلأى وَإِن جَمُدَت رُعبا

بِأَقلامِنا أُجحِرتَ أَم بِسُيوفِـــنا وَأُسدَ الشَرى قُدنا إِلَيكَ أَمِ الكُتـــبا

تَرَكناكَ في بَطنِ الفَلاةِ تَجوبُهـا كَما اِنتَفَقَ اليَربوعُ يَلتَثِمُ التُـــربا

تُفاخِرُنا بِالطَعنِ وَالضَربِ في الوَغى لَقَد أَوسَعَتكَ النَفسُ يا اِبنُ اِستِها كِذبا(٢٢)

يكرر الشاعر ضمير الجماعة عدة مرات، موضحا في كل مرة مأثرة من مآثر العرب في انتصاراتهم على أعدائهم الروم، كما أنّ لغة الشاعر جاءت منسجمة مع انفعاله الذي جسّد حالته النفسية، وقد تجسّد فيها العنف بصور مختلفة، ولاسيما اللفظي، وهو امتداد لحالة الحرب بين العرب والروم، وضيقه بكبر هذا الرومي وصلفه، فزاوج بين تجربته وأدائه الفني، كما جاءت موسيقاه صاخبة، فالأداء الفني كان متناغما مع موضوع القصيدة.

لم يكن أبو فراس الحمداني على هذه القوة والصلابة دائما، بل كانت ظروف الأسر تكسره أحيانا، وتجعله غاية في الضعف، فيخفت

(٢٢) ديوانه، ج٢، ص:٣٧.

ذاك الصوت المرتفع، وتنكسر تلك النفس العظيمة، بل إن اليأس والوحدة كثيرا ما كانا يعصفان به، فيعبّر عن تجربته بكل ما اختزنه من حزن ومرارة وشكوى، فهو على أي حال إنسان بقوته وضعفه وانحنائه أمام الظروف، ولاسيما في ظلّ ما عاناه في الأسر. ويظهر هذا كله عندما كان يخلو بنفسه في أعماق الليل، أو حينما يخاطب أركان الطبيعة، فقد خاطب الليل والعيد والحمام فشخصّها جميعا لتكون مساعدة له على تخطي وحدته ومعاناته، ومن قصائده الجميلة في هذا المجال قصيدته التي خاطب فيها حمامة، متخذا إياها جارة له يحاورها ويبثها شكواه، وأشجانه الحزينة. قال:

أقولُ وقد ناحتْ بقربي حمامـةٌ أيا جارتا هل تشعرينَ بحالـــي
معاذَ الهوى ما ذقت طارقةَ النوى ولا خطرتْ منكِ الهمومُ ببـــالِ
أتحملُ محزون الفؤاد قــوادمٌ على غصن نائي المسافةِ عــالِ
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننـا تعالي أقاسمك الهموم تعالـــي
تعالي تري روحا لدي ضعيفـة تردد في جسم يُعذّب بالي
أيضحك مأسور وتبكي طليقـةً ويسكتُ محزونٌ ويندبُ سالـــي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلـة ولكن دمعي في الحوادث غالي(٢٣)

تنبه كثير من دارسي شعر أبي فراس إلى اتخاذ الشاعر الحمامة جارة له يراقبها ويحاورها تعويض عن حالة الفقد لأهله وأحبته، وشعوره بالوحدة والغربة، عاقدا مفارقة كبيرة بين حاله وحالها، فهو هادئ يضحك رغم ما حلّ به، في حين هي تبكي وتندب مع أنها حرة طليقة، لكن هذا الضحك ما هو إلا محاولة للسمو فوق الحزن والانكسار، ومحاولة للتجلّد أمام موقف الأسر والغربة، وتخلي الخلان عنه، إن الشاعر الأبي، ذا النفس العظيمة تجعله في مكانة تسمو على الضعف والهوان، رغم الألم

(٢٣) المصدر السابق، ج٣، ص:٣٢٥.

الذي يعتصر قلبه، والدموع التي تنحدر من كلماته، وتقطر من مفارقاته، ولغته الرقيقة.

برزت هذه اللغة الرقيقة، والعواطف الجيّاشة أيضا، في خطابة لبعض أفراد أسرته وأصدقائه، كما سيظهر في حديثي عن الآخر الموافق له.

ثانيا: الآخر

الآخر اسم خاص للمغاير، يقال للأشخاص والأشياء والأعداد، ويطلق على المغاير في الماهية، وهو مقابل للأنا، "والآخر المقصود ليس كما هو في الواقع، وإنما كما أعيه أنا".(٢٤) سأتناول هنا (الآخر الإنسان) كما ظهر في روميات أبي فراس، وهو نوعان: الآخر المخالف له، وقد تمثّل بشكل خاص في ابن عمّه سيف الدولة، وأعدائه الروم، ثم الحساد والشامتين، وبعد ذلك الآخر الموافق له، وقد تمثّل في بعض أفراد أسرته، ولاسيما والدته.

ظهر سيف الدولة ابن عمّ الشاعر بصورة واضحة في الروميات، ولاسيما في قصيدته الرائية التي تُعدّ من أشهر قصائده التي قالها في أسره، بل أشهرها على الإطلاق، وهي من أكثر قصائده استبطانا لصراع الذات مع الآخر، ففيها يتجسّد بكامل سماته وخصائصه، كما رآها أبو فراس في مرحلة من حياته، ومنها تتولد الدلالات التي تؤكد أنّ كثيرا من الجماليات الأدبية الموجودة فيها ما هي إلا أدوات للمخادعة والمخاتلة الثقافية.(٢٥)

بدأ الشاعر قصيدته بالحديث عن شوقه لأحبابه، وعن لوعته ومعاناته في غياهب السجون الرومية بعد أسره، لكن بصبر عظيم، وتحدٍّ كبير. قال:

---

(٢٤) الحفني (عبد المنعم الحفني)، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠، ص: ٢٩

(٢٥) الغذامي،(عبد الله الغذامي)، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب. ٢٠٠٢.ص: ١٧٦.

أراك عصي الدمع شيمتك الصبـرُ أما للهوى نهيٌ عليكَ ولا أمـــرُ
بلى، أنا مشتاق وعندي لـوعـةٌ ولكن مثلي لا يذاع له ســـرُّ
إذا الليل أضواني بسطت يدَ الهوى وأذللت دمعاً من خلائقه الكِبـــرُ
تكاد تضيء النار بين جوانحـي إذا هي أذكتها الصبابةُ والفكـــرُ
معللتي بالوصلِ والمـوتُ دونـه إذا متّ ظمآناً فلا نزلَ القطـــرُ
حفظتُ وضيّعتِ المودةَ بيننـــا وأحسن من بعض الوفاءِ لكِ العذرُ(٢٦)

هذا الحوار الذي أجراه الشاعر بينه وبين محاوره المعنوي، يصوّر انشطار ذاته، وصراعه الداخلي العنيف الذي يعاني منه في حالتي الضعف والقوة، بعد أن عرفه الناس فارساً قوياً، وهو يريد لهذه الصورة أن تبقى مشرقة ناصعة لا أن تشوّه بالضعف؛ إذ لا يجعل الشوق، والهوى العميق مهما بلغا أن يضعفاه؛ مما جعل الليل زماناً مناسباً للانضواء تحت ظلمته؛ وذلك للتعبير بحرية عن مشاعره العميقة التي كانت كالنار تسري في أعماقه، فتكشف عمّا يعتمل في جنبات نفسه، كل ذلك بسبب ما كان من خيانة صاحبته له، التي كانت تعلله بالوصل لكنها لم تُحقق من وصلها شيئاً، ولم تكتفِ بالتسويف في وعودها، بل يُشتمّ من تصرفاتها رائحة الغدر والخيانة، في حين ما زال هو بالمقابل يحفظ لها الودّ، ويلتزم لها بالوفاء، إنّ المقابلة بين موقف الشاعر وموقف هذه الفتاة الرمز، يُعلي من شأنه، ويكشف عن سمو أخلاقه، لقد شكّل الشاعر معها ثنائية ضدية من خلال الفعليين الماضيين:(حفظتُ وضيعتِ) اختصرت شكل العلاقة بينهما، وأوضحتها.

تكشف القراءة العميقة لروميات أبي فراس عن أنّ صاحبته المزعومة هذه ما هي إلا رمز لسيف الدولة الذي منّاه بالخلاص من الأسر، لكنه لم يفِ بوعده هذا؛ مما دفع الشاعر إلى استنكار تصرفه حيناً، ورفضه أحياناً، بل أكثر من ذلك كله دفعه للدعاء عليه بألا يكون

(٢٦) ديوانه، ج٢، ص: ٢٠٩.

له وصل بإنسان أبدا (إذا متّ عطشاناً فلا نزل القطر). فكأنه بدعوته هذه يريد الانتقام منه؛ إن هو مات في الأسر، فليحرمه الله من كل صديق مخلص، ولا يحقق له خيراً في حياته نقمة عليه، فقد أحبّه، وأخلص له، وحارب إلى جانبه، في حين تجاهل هو هذا الحب، وضيّع ما كان بينهما من طيب العلاقة، فهذا البيت هو ردة فعل على ما كان من سيف الدولة؛ إذ أمّل الشاعر منه بالافتداء لكنه لم يفعل.

لقد كانت هذه المرأة الرمز تستمع إلى الواشين الذين يضمرون للشاعر شراً:

بنفسي من الغادين في الحـي غادة هواي لها ذنبٌ وبهجتها عـــــذرُ

تروغ إلى الواشين فيّ وإنَّ لـــي لأذنا بها عن كل واشيـةٍ وقـــــرُ

بدوت وأهلي حاضرون لأننـــي أرى أنّ دارا لستِ من أهلها قفـــر

وحاربت أهلي في هواك وإنهـم وإياي لولا حبك الماء والخمـــر(٢٧)

يبدو أبو فراس منتقدا سياسة سيف الدولة، التي تكشف عن عيوب أخلاقية مما لا تجدر بالأمير السيد، وذلك من خلال رمز المرأة السالب، فهي تجالس الواشين، وتستمع إليهم، بل أكثر من ذلك تعمل بمشورتهم، ولعل كلمة (تروغ) تشير إلى أنها تستدرج الآخرين بمراوغتهم من أجل إغرائهم بالاستماع إلى حكمها في أبي فراس، وقد تذهب إلى الواشين لاستقطاب الكلام، واستدراجه في حق أبي فراس، وكلا المعنيين نقد لاذع له، ولعل الكلام الذي كان يقال عند سيف الدولة بشأن أبي فراس يدور في مجمله على أنه فارس وطموح، ومن الممكن أن يسلب منك الملك.

ولعل التضاد في صورتي سيف الدولة وأبي فراس في البيت الثاني مثال على كلية البناء المتنافر والمتحد في آن، فهو يشير إلى أنّ الشاعر بنى لغته على أساس التنافر بين موقفه، وموقف ابن عمّه،، فالشاعر محب لسيف الدولة، مخلص له في بعده عنه وفي قربه منه، ضحى في

(٢٧) المصدر السابق،ج٢، ص:٢١٠.

سبيل هذا الحب بأهله كما يقول، ويرفض الاستماع إلى أي كلمة سوء في حقّه في حين كان موقف سيف الدولة مناقضا لموقفه هذا.

ويشكّل هذا التناقض بين موقف الشاعر، وموقف سيف الدولة مفارقة كبيرة؛ لأنّ من يستمع إلى الواشين، والمغرضين، ويجالسهم، ويسمح لهم بتغيير موقفه من ربيبه وابن عمّه، وفارسه وشاعره، يجعل من نفسه عرضة للشك باتخاذه القرارات الصائبة في المواضع الأخرى حسب رأي الشاعر.

لا تكتفي هذه الفتاة الرمز بمقابلة صفة الوفاء بالغدر، بل هي تستمتع بها. قال:

وفيت وفي بعض الوفاء مذلّـــة لآنسةٍ في الحي شيمتها الغـــدر
وقورٌ وريعان الصبا يستفزّهـــا فتأرن أحياناً كما يأرن المهـــر
تسائلني من أنت وهي عليمـــة وهل بفتى مثلي على حاله نُـــكرُ
فقلتُ كما شاءتْ وشاءَ لها الهـوَى قتيلُكِ قالتْ أيُّهمْ فهمُ كُثْـــرُ
فقلتُ لها لو شئتِ لم تَتَعنَّتـــي ولم تسألي عنّي وعندكِ بي خُبْـرُ
فقالت لقد أزرَى بكَ الدهرُ بعدَنـا فقلتُ معاذَ اللهِ بل أنتِ لا الدَّهرُ(٢٨)

الحوار الذي عقده الشاعر بينه وبين هذه الفتاة مبني على مفارقات عجيبة، فهي أولا تسأله سؤالاً هي أعلم الناس بجوابه:(من أنت؟)؛ لأنه معروف للقاصي والداني، فتجاهل العارف شكل من أشكال المفارقة عرفه العرب في تاريخهم الشعري، والمفارقة الثانية تضمّنها جوابها الساخر: (أيهم فهم كثر)، فبدلا من أن تتعاطف معه تسخر منه، وتتحداه بكثرة قتلاها، والمفارقة الثالثة تضمّنها قولها:(لقد أزرى بك الدهر) مع أنها تعلم علم اليقين أنّ ما فعل به هذا التغيير السلبي هو غدرها به، الذي كان أقسى مما يمكن أن يفعله الدهر العدو اللدود للإنسان، كما صوّره الشعراء منذ القديم، ثم تأتي المفارقة الكبرى؛ إذ يفترض في الحبّ، وكل العلاقات الحميمة أن توصل أصحابها إلى السعادة، لكن علاقته بها

(٢٨) نفسه، ج٢، ص:٢١٠-٢١١.

أوصلته إلى الهلاك، لقد وظف الشاعر أسلوب المفارقة للكشف عن التباين بين موقفه وموقف ابن عمه منه، فأفادت إخراج ما هو متوقع من سيف الدولة إزاء ابن عمّه إلى غير المتوقع. إنّ عقد هذه المفارقات جميعها يُشير إلى التضاد والتنافر مرة أخرى في موقف كل من الأميرين على مستوى السلوك، فقد جاء سلوك سيف الدولة مع ابن عمه مفارقا لما هو متوقع، إذ كان الشاعر يأمل منه أن يعمل على سرعة تخليصه من براثن الروم، إلا أنّ هذه التوقعات خابت؛ لأنّ حبّه ووفاءه لابن عمه قوبل بالتباطؤ والتجاهل، مما عمّق شعوره بالخيبة والألم، فالمفارقة في مستواها اللغوي هي انحراف سلوك متوقع إلى سلوك غير متوقع مع ما يصاحب ذلك من انفعال عند كل من المبدع والمتلقي على السواء، ومع أنّ أبا فراس بدا الضحية لهذه المفارقات جميعها، فإن سيف الدولة هو أيضا ضحية لمفارقات الشاعر إذ إنه في النهاية صُوّر للمتلقي بصورة سلبية.

واستطاع أبو فراس من خلال القناع الرمزي السلبي لابن عمّه، ممارسة ما يحلو له من النقد والتعريض بأخلاقياته، فهو مغرور يتصرّف مثل مهر لم يطبّع بعد، فهو تارة يتأبى على الانقياد كما يتأبى المهر بما يملك من سلطة، وبثقته بما يكنّه الشاعر له من محبة، وولاء، وإخلاص، وفي المقابل، فإنّ هذه الأبيات تضمر أمرا آخر خاصا بالشاعر الذي يقابل تصرفات الغدر من ابن عمّه بالولاء والوفاء والإخلاص.

يمكن لهذه القصيدة أن تفسّر في إطار النقد لتصرفات سيف الدولة من خلال توظيف الشاعر لرمز المرأة الذي يصور العلاقة الجدلية بينهما، والصراع بين الخير والشر من خلال الحديث عن الثنائية الضدية (الغدر والوفاء)، فالمرأة الغادرة ربما كانت قناعا لسيف الدولة، ورمزا له وظّفه أبو فراس بطريقة ذكية، إذ تركه بالأسر، ولعل الشاعر أراد من سؤاله:(أيهم فهم كثر؟) الكشف عن أنه لم يكن الوحيد الذي اكتوى بنار السلطة من تنكّر وإبعاد، فهناك ضحايا كثيرون لها، "إنّ الذي يخفيه النص يحرض القارئ على الفعل، ولكن هذا الفعل خاضع لما هو ظاهر،

ويتم تحويل ما هو واضح في اللحظة التي يتم فيها إخراج ما هو متضمن إلى دائرة الضوء".(٢٩)

المظهر الثاني البارز في هذه القصيدة، بل في معظم الروميات هو محاولة سيف الدولة إلغاء الآخر(الشاعر) من خلال إبعاده، وهذا المظهر هو من مظاهر الأنا المتفردة، فإبعاد هذا الفارس ربما كان خوفاً من إمكانية منافسته لابن عمّه، والاستيلاء على ما بين يديه، ولاسيما حين رأى تفوقه، وحب الناس له؛ لذا حاول أن ينكره، ويتنكّر لكل أعماله العظيمة التي قدمها خدمة له ولأمته، إنّ محاولة الإنكار هذه تشفّ عن حالة من استعلاء ابن عمّه تقوم على تقليل شأن الآخر، وتحقير مكانته، وأعماله. قال:

فلا تنكريني يابنة العمّ إنـــــه ليعرف من أنكرته البدو والحَضْـرُ

ولا تنكريني إنني غيرُ منكَـــرٍ إذا زلّت الأقدام واستُنزِل النصرُ(٣٠)

يخاطب الشاعر ابن عمّه الذي يحاول أن ينكره، لكن هيهات له أن يقدر أن ينكر الحقيقة الناصعة! فمن له كل هذه الأخلاق والبطولات العظيمة والانتصارات لا يمكن أن يكون منكراً عند الأباعد من الناس، فكيف بابن عمّه وأقرب الناس إليه؟

أفاد تكرار أسلوب النهي في هذين البيتين الشاعر بالسماح له بأن يأتي بعد الجملة المكررة بوصف جديد عمّق الفكرة التي أرادها من كون ابن عمه غير قادر على إنكاره؛ لأنه معروف بين الجميع ببطولاته وأعماله العظيمة، وهو تكرار يكشف عن رفض شديد لأسلوب سيف الدولة في التعامل مع بطل معروف كأبي فراس.

تُظهر القراءة الكاشفة لروميات أبي فراس قدرته على المخاتلة والتمويه، فنراه من خلال المدح والعتاب الظاهري، ومن خلال الشعري

---

(٢٩) سليمان،(مالك سليمان)، وولفانغ أيزر، التفاعل بين النص والقارئ، علامات في النقد، مج٧،ج٢٥، ١٩٩٧، جدة- السعودية ص: ٢٢٠.

(٣٠) ديوانه، ج٢، ص:٢١١.

والجمالي ينفذ إلى تعرية ممارسات ابن عمّه في غلاف من الأدب الجميل. قال معاتبا إياه أيضا:

زماني كلُّه غَضَبٌ وعتـْــبُ وأنت عليّ والأيــامُ إلـْــبُ
وعيشُ العالمين لديك سهــــلٌ وعيشي وحدَه بفناك صــــعبُ
وأنت- وأنتَ دافعُ كلِّ خطــب- مع الخطب الملمِّ عليَّ خَطْـــبُ
إلى كم ذا العِتابُ وليس جُـــرمٌ وكم ذا الاعتذارُ وليس ذنــبُ(٣١)

يوضح هذا العتاب الرقيق من قبل الشاعر لابن عمه كثيرا من مخبوءات نفسه، وأسرار علاقته معه، فهو يشير إلى أنّ علاقة سيف الدولة به في مرحلة ما قبل الأسر كانت مزيجاً من الغضب والعتاب دونما جرم أو ذنب، وأنه كان كثير التحامل عليه، مع أنّ هذا ليس من طبعه، فهو لم يكن كذلك في علاقته مع الآخرين، إذاً لماذا كان سيف الدولة يعامل أبا فراس هذه المعاملة؟ ولماذا كان أبو فراس يشعر بأنّ سيف الدولة يتقصّده بها دون الآخرين؟ ألا يمكن أن يشير ذلك إلى غيرة سيف الدولة من أبي فراس، بعدما رأى ما هو عليه من قوة وفروسية وشباب، وإعجاب الناس به، ولما كان سيف الدولة السيد الذي لا يرضى بالمنافسة، ولا يرضى بغير التفرّد، فهو الأنا العليا والمتعالية والوحيدة التي لا مثيل لها لاسيما مع ما كان عليه المجتمع الحمداني من تنافس على السلطة، والتقاتل في سبيلها، ففي ثقافة واحدية السلطة لا مكان للمعارضة أو مخالفة الرأي، كما أنّ الآخر فيها دائما قيمة ملغية، ولا يصل صاحبها إلى مرتبة القدرة إلا بعد أن يثبت لنفسه مقدرته على إسكات أي صوت سواه.

يجد الباحث في روميات أبي فراس الشاعر يغلّف النقد والتعريض بابن عمّه من خلال ما هو أدبي وجمالي، ومن خلالهما يمكن التوقّف للكشف عن كثير مما أضمره. قال:

أسيف الهدى وقريع الـــعرب علام الجفاء وفيمَ الغضـــــبْ
وما بالُ كُتْبِك قد أصبحــــتْ تَنَكَّبُني معَ هذا النُّكَـــــبْ

(٣١) المصدر السابق، ج٢، ص:٢٨.

وأنتَ الكريم وأنتَ الحليـــمُ وأنتَ العطوف وأنتَ الحـــدبْ
وما زلتَ تسبقني بالجميـــلِ وتُنزِلني بالجناب الخَصِـــبْ
وتدفع عن حوزتيَّ الخطـــوبَ وتكشفُ عن ناظريَّ الكُـــرَبْ
وإنَّكَ لَلجبلُ المشمخـــــرُّ لي بل لقومك بل للعَـــرَبْ
عُلا تُستفادُ وعافٍ يُفـــــادُ وعزٌّ يُشادُ ونُعمَى تـــُـرَبْ
وما غضَّ منّي هذا الاســارُ ولكنْ خَلصْتُ خُلوصَ الذَّهـــبْ
ففيمَ يعرّضني بالخمـــــو لِ مَولى به نلتُ أعلى الرُّتـــبْ
وكانَ عتيداً لديَّ الجـــوابُ ولكنْ لهيبتهِ لـم أُجِـــبْ
أتُنكرُ أني شَكوتُ الزَّمـــانَ وأني عتبتُكَ فيمن عَتـــبْ
فهلا رجعتَ فأعْتَبتَنـــي وصيَّرتَ لي ولقومي الغَلـــبْ(٣٢)

من يقرأ هذا الشعر يظن للوهلة الأولى أنّ أبا فراس يقصد مدح سيف الدولة، أو على الأقل معاتبته، ولكن الأمر ليس بمدح، ولا يقف عند حدّ العتاب، بل فيه تقريع، وانتقاد شديد ولاذع له؛ لأنّ من يملك هذه الصفات، ويخدم قومه، ويحقق المجد العظيم لأمته، يُستهجن أن يُعامل هذه المعاملة من الإهمال والإقصاء بعدما وقع في الأسر؛ لذا فإنّ تعالي الشاعر في قوله:(وما غضّ مني هذا الإسار) ربما جاء من باب طمأنة سيف الدولة بأنه وإن كان قادراً على إبقائه في الأسر، فإنه غير قادر على الغضّ من شأنه وإضعافه، فهو ما زال القوي، الشجاع، نقي الخلق، ولعل هذه محاولة من الشاعر للصمود، وحفظ توازنه في ظلّ هذه المحنة العظيمة، ولاسيما أمام الشامتين والمنافقين.

يبدو كثير من الجمل الشعرية السابقة في ظاهرها ثناء، لكنها في المقابل تضمر ذماً، وذلك من خلال طرح الأسئلة الاستنكارية الآتية:(علامَ الجفاء وفيمَ الغضب؟)و(وما بال كتبك قد أصبحت.؟) و (فيمَ يقرّعني بالخمول مولى..؟) و(أتنكر أني شكوت الزمان؟)، ثم بعد ذلك تأتي الأجوبة التي ردّ فيها أبو فراس على سيف الدولة: (وما غضَّ مني هذا الإسار ُولكنْ) و(وكان عتيداً لديّ الجـــواب ولكن...). ويتابع قائلاً:

فلا تَنسبنَّ إلـيَّ الخمـــــولَ عليكَ أقمتُ فلم أغتـــــربْ

(٣٢) ديوانه، ج٢، ص: ٢٦.

وأصبحتُ منكَ ففضـــلٌ يكـونُ وإنْ كان نَقصٌ فأنتَ السَّبـــبْ
وما شكَّكْتني فيكَ الخطـــوبُ ولا غَيَّرتْنيَ فيكَ النُّـــوَبْ
وأسكنُ ما كنتُ فـي ضَجْرتـــي وأحلَمُ ما كنتُ عندَ الغَضـــبْ
وإنَّ (خُراسانَ) إنْ أنكـــرتْ عُلايَ فقد عرفَتْـها حلـــبْ
ومن أينَ يُنكرني الأبعـــدونَ أمن نقصِ جَدٍّ أمِ من نَقـــص أبْ
ألستُ وإياكَ مـن أُســـرةٍ وبَيني وبينك قرب النَّســـبْ
وَدارٍ تَناسَـبُ فيـها الكـرامُ وتربيةٌ ومحـلٌّ أشِـــبْ(٣٣)

يعملُ أبو فراس في هذه الأبيات على تأنيب ابن عمّه تأنيباً عنيفاً، ويتهكّم عليه تهكماً كبيراً، بل ويسخر سخرية شديدة؛ لأنه يتهم الشاعر بالخمول مع العلم بأنّه هو من علّمه ورباه، واصطفاه لنفسه في الحرب والسلم، وأما من حيث النسب فكيف يمكن لابن عمه، ومن تربى في حجره، وشهد معه المواقع العظيمة أن يكون خامل النسب؟ وهذه كلها مفارقات أراد منها السخرية والتهكم، فتجاهل العارف، والمدح بما يشبه الذم أو العكس كلها من أنواع المفارقة، عرفها العرب منذ القديم في فنونهم الشعرية المختلفة، هدفها الضحك الذي يشبه البكاء ألما من الحال التي أصبح عليها ضحية المفارقة، ومن هنا تبرز مقدرة الشاعر على المراوغة والمخاتلة مرة أخرى من خلال الشعر.

جاءت هذه القصيدة ردّاً على قول سيف الدولة حينما سمع بمراسلة أبي فراس لأمير خُراسان يطلب منه تخليصه من الأسر: من أين يعرفه أمير خرسان؟(٣٤) فيجيبه أبو فراس مذكّرا إياه بمكانته وبطولاته السابقة، ويحمّله السبب في عدم معرفة أمير خرسان أو غيره له إن كان فعلا مجهولا بالنسبة لهم؛ لأنّ سيف الدولة أبقاه إلى جانبه، ولم يسمح له بالابتعاد عنه، من هنا ربما لم يعرفه الآخرون من الأمراء والحكام، ويذكّره بأنّه إن كان مغموراً، وغير معروف، فهذا يعني أنّه هو كذلك؛ لأنهما أبناء عمومة، وبالتالي لا مجال للتفاضل بينهما، ولعلّ هذه من

(٣٣) المصدر السابق، ج٢، ص: ٢٧.

(٣٤) انظر مناسبة القصيدة، ج٢، ص:٢٥.

المواضع التي كانت تُذكّر سيف الدولة بأنّ الشاعر ندّ له، ولا يقلّ عنه في شيء.

كان موضوع الفدية الكبيرة التي طلبها الروم لفك أسر أبي فراس يؤرقه؛ إذ وصل إلى مسامعه أن سيف الدولة استكثرها، فآلمه ذلك كثيرا، ولا سيما مع معرفته لكرم سيف الدولة مع الآخرين. قال في قصيدة أخرى:

ولا تقعدَن عني- وقد سيم فديتـي- فلستَ عن الفعل الكريم بمقعـدِ
فكم لك عندي من أيادٍ وأنعـمٍ رفعتَ بها قدري وأكثرت حُسّـدي
تشبّثْ بها أكرومةً قبل فوتِهـا وقم في خلاصي صادق العزم واقعدِ
فإنْ مُتُّ بعدَ اليومِ عابَكَ مَهلكـي مَعابَ الزراريْن مَهْلَكَ مَعبـدِ
همُ عَضَلوا عنه الفداءَ فأصبحـوايَهذُّون أطرافَ القريض المُقصَّـدِ
ولم يكُ بدعاً هُلكُهُ غيرَ أنهـم يُعابون إذ سِيمَ الفِداءُ وما فُـدِي
فلا كانَ كلبُ الرومِ أرأفَ منكُمُ وأرغبَ في كسْبِ الثناءِ المخلَّـدِ
ولا يبلُغِ الأعداءُ أن يَتناهضُـوا وتقعدَ عن هذا العَـلاءِ المشيَّـدِ
أأضحَوا على أسرَاهُمُ بيَ عُـوَّداوأنتمْ على أسراكمُ غيرُ عُـوَّدِ(٣٥)

(٣٥) ديوانه، ج٢، ص: ٧٩. الزراريون: هم بنو عامر بن صعصعة معبد بن زرارة التميمي حيث أسر هذا أخا لقيط وحاجب ابني زرارة وذلك بعد موت حاجب، فشرى نفسه بأربع مئة بعير، وأبى أخوه لقيط بن زرارة أن يقودها فيه. وذكر أنّ أباه وصاه بألا يطعم العرب أثمان بني زرارة، فحبسه بنو عامر بالكائف حتى مات في قيده، فندم لقيط، وأنشأ فيه المراثي. انظر شرح ديوان أبي فراس حسب المخطوطة التونسية، إعداد الدكتور محمد بن شريفة، نشر مؤسسة جائزة البابطين، ٢٠٠٠، ص:١١٠.

تكشف الأبيات عن كثير مما كان يدور في خلد الشاعر من رفض أسلوب سيف الدولة في معالجة موضوع أسره، فهو يتهمه بالقعود عن فديته، وهذا ليس من أخلاقه، وعاداته معه في الماضي، ولا مع غيره، ومن ثَم لا بد أن يكون وراء هذا التصرف أمر يثير الشك، فهو يطلب إليه تخليصه من الأسر من خلال تكرار أسلوب الطلب في قوله: (لا تقعدن، تشبث بها، قم)، وكذلك من خلال عقد المقارنة بين موقف كل من سيف الدولة، وكلب الروم -مثلما نعته- فقد كان موقف كل منهما مفارقا لما هو متوقع منه، مما زاد في ألم الشاعر وإحباطه، وكذلك كان الحال بالنسبة للمتلقي، مما دفعه إلى التعاطف مع الشاعر، ورفض موقف سيف الدولة المستهجن.

حثّ الشاعر ابن عمّه على الإسراع في فكّ أسره قبل فوات الأوان، فيكون حاله مثل حال بني زرارة الذين قعدوا عن افتداء أخيهم معبد، فمات في الأسر، فقاموا برثائه، فلم ينفعهم هذا الرثاء من الندم، ولحاق العار بهم، وهذا تهديد لسيف الدولة، وما سيكون عليه حاله إن مات الشاعر بالأسر، ويزيد من تقريع ابن عمّه بمقارنته بملك الروم الذي عرض على أبي فراس المساعدة في حين قعد عنها هو، وهذه مفارقة أخرى عظيمة ومؤلمة، ولعل إصراره على تسمية ملك الروم بالكلب إشارة منه إلى موقفه السابق منه قبل الأسر الذي ما زال كما هو، حتى إن عرض عليه المساعدة، فهو لم يوافقه ولم يهادنه؛ لأن مثل هذا يُعدّ خيانة لابن عمه وعروبته وقيمه، وفي هذا تعميق للمفارقة السابقة ومبالغة فيها إذ تعدّت صورة المتوقع إلى اللامتوقع.

أما التناص التاريخي الذي أشار الشاعر فيه إلى قصة الزراريين، فإنّ فيه فائدة العظة والعبرة لسيف الدولة؛ لأنّ التاريخ سيسجّل عليه هذا الموقف السلبي، إذا ما مات الشاعر في الأسر، إضافة إلى ما سيلاقيه من الندم والحسرة على فقده، لكنه سيكون بعد فوات الأوان.[٣٦]

---

(٣٦) قيل الكثير في تراخي سيف الدولة في افتداء ابن عمّه قديما وحديثا، وعُزي إلى غير سبب، مثل رغبة سيف الدولة في فداء أسرى المسلمين جميعاً، وليس فداء ابن عمه دون غيره. وعزاه آخر إلى عدم تمكّن سيف الدولة من دفع الفدية التي كانت كبيرة، وتخوفه السياسي من منافسة أبي فراس لولي العهد أبي المعالي. أما

بقي الشاعر وفيا لسيف الدولة بالرغم من إحساسه بأنّه قصّر في حقّه، يعنيه أن يطمئن على حبّه، ومودته له؛ لأنّ لا شيء يستحق ما يفعله معه في هذه الدنيا، وهذا درس آخر في الحكمة والأخلاق يعلّمه الشاعر لابن عمّه؛ والأمير الصغير سنّاً لمن هو أكبر سنّا، وكان من المفروض أن يكون سيف الدولة أكثر حكمة، وفهماً لمجريات الحياة، وهذه مفارقة أخرى عميقة تصور انقلاب الحال، وتغيّره.قال:

فَديتُكَ ما الغَدرُ مِن شيمتي قديماً ولا العجزُ مِن مَذْهبي
وهَبْني كما تَدَّعي مُذْنِباً أما تقبَلُ العُذرَ من مُذنبِ
وأولى الرجالِ بِعَتْبٍ أخٌ يكُرُّ العِتابَ على مُعتِبِ(٣٧)

يبدو سمو أخلاق الشاعر من خلال استمرار حبه لسيف الدولة ووفائه له، فهو يعزّ عليه أن يمرض مع أنه تركه في الأسر يعاني الآلام العميقة. وفي هذا رفع آخر لقيمة الشاعر، وإعلاء لشأنه مرة أخرى مقارنة مع ابن عمّه، فهو يكشف عن التناقض في سلوك كلّ منهما. قال عندما بلغه خبر علّة وجدها:

هل تُقبَلُ النَّفسُ عن نفسٍ فأفديَهُ الله يعلمُ ما تغْلو عليَّ بِها
لئن وهَبتُكَ نفْساً لا نظيرَ لها فما سَمحتُ بها إلا لِواهِبِها(٣٨)

ومنه كذلك قوله:

إذا بقيَ الأميرُ قريرَ عينٍ فدَيناهُ اختياراً لا اضطرارا
أبٌ بَرٌّ ومَولىً وابنُ عمٍّ ومُستَنَدٌ إذا ما الخطبُ جارا

فؤاد البستاني فقد كان تفسيره أقرب التفسيرات إلى الحقيقة التاريخية التي تبرر موقف الملك من ابن عمه، والذي عزاه إلى الوضع العسكري السيء الذي كان لسيف الدولة في حروبه مع الروم، وتقدّمهم عليه؛ إذ لم يتنفس الصعداء من هذا الوضع الصعب إلا في سنة ٩٦٦م، فأسرع حينها إلى افتداء أسراه، وفي مقدمتهم أبو فراس، وقد لا يكون أبو فراس مطّلعا على هذه الظروف. انظر البستاني، (فؤاد أفرام البستاني)، أبو فراس الحمداني، سلسلة الروائع، ١٩٢٨.ص: هـ ــ وانظر في هذا كله: بكار، (يوسف بكار)، عصر أبي فراس الحمداني، نشر مؤسسة البابطين، ٢٠٠٠،ص:٧٤.

(٣٧) ديوانه، ج٢، ص: ٥٣.

(٣٨) المصدر السابق، ج٢، ص:١٩.

يَمدُّ على أكابرِنا جَناحـــــاً ويكفُلُ في مواطننا الصِّغـارا(٣٩)

يضمر هذا المدح لسيف الدولة مفارقات كبيرة؛ إذ كيف لمن يملك كل هذه الصفات، ومن كان بالنسبة للشاعر أباً، ومولى، وابن عمّ ألا يسارع لافتدائه من الأسر؟! وفي هذا تأنيب كبير له؛ لأنّ من يملك هذه الصفات يتوقع منه غير هذا، ومن كان في موقعه يتوقع منه أن يرعى الكبار بعطفه عليهم، وأن يكفل الصغار لحاجتهم إليه، ولا يتوقع منه كلّ هذا الجفاء، وتركه الشاعر قابعاً في ظلمات الأسر، والمفارقة الأكبر تكمن في موقف الشاعر الذي يكن كل هذا الحب والإخلاص لسيف الدولة، ويفديه بنفسه حبا ووفاء، في حين سيف الدولة يقابل هذا منه بالتجاهل، وعدم الوفاء، إن هذه المفارقة تكشف من دون ريب التضاد في موقف كل من الأميرين نحو الآخر.

استعرض الشاعر حياته مع سيف الدولة، فوجد أنه معذب، لم تدخل الراحة إلى نفسه أبدا؛ لأنه عاش بين الهمّ، أو الهجر كما في قوله:

وقلبت أمري لا أرى لي راحـــة إذا الهمُّ أسلاني ألحّ بيّ الهجـرُ(٤٠)

يبدو أن شخصية سيف الدولة كانت تتميز بشيء من التسلّط والاستبداد بالأمر، إذ يقول أبو الفداء: "كان سيف الدولة معجبا بنفسه، يحب أن يستبد ولا يشاور أحدا، لئلا يقال عنه أنه أصاب برأي غيره".(٤١) ربما كانت هذه الصفات سبباً في إحساس الشاعر بمضايقات سيف الدولة له التي بدأت قبل الأسر بمدة طويلة كما تؤكده الأبيات الآتية:

فَلا بالشامِ لذَّ بَفِيَّ شُـــــربٌ ولا في الأسرِ رقّ عليَّ قلـــبُ
فلا تَحملْ على قلبٍ جريـــــحٍ بهِ لحوادثِ الأيـامِ نَـــــدْبُ
أمثلي تُقبلُ الأقوالُ فيـــــهِ ومثلُكَ يستمرُّ عليهِ كـــذْبُ(٤٢)

---

(٣٩) نفسه، ج٢، ص:١٨٩.

(٤٠) نفسه، ج٢، ص: ٢١١.

(٤١) (عماد الدين)، أبو الفداء عماد الدين، تاريخ أبي الفداء، علق عليه ووضع حواشيه محمد ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.ج١، ص:٤٣٩.

(٤٢) ديوانه، ج٢، ص: ٢٨.

يكشف أبو فراس في هذه الأبيات عن معاناة شديدة بدأت منذ زمن بعيد، وقد تبدّت هذه المعاناة في كثرة التأنيب والعتاب؛ الأمر الذي جعله يضيق بالحياة في الشام قبل الأسر، لكنّه لم يشأ أن يجعل سيف الدولة مسيطرا على حياته سيطرة تامة، فكان يخفي خلف عتابه كثيراً من النقد له، وذلك من خلال الأسئلة الاستنكارية الكثيرة التي كان يطرحها، إذ لا يعقل بعد كل ما قدّمه لأمته من تضحيات، ولسيف الدولة من خدمات وحب وإخلاص، إذ لا يجوز لمثل سيف الدولة في سنّه وحكمته وخبرته ومكانته أن يستمع لهم، ولا حتى مجالستهم، فكيف يمكن تصديقهم في شخص مثل أبي فراس؟ ولا يجوز بحال من الأحوال أن تنطلي عليه مثل هذه الأكاذيب، فإذا انطلت عليه حيلهم، وأكاذيبهم، فهذا صدع كبير في صفاته التي من المفترض أنها هي التي أهّلته ليكون سيداً مطاعاً، وأميراً حكيماً، وهذا نقد آخر له، لأنّ أبا فراس بأقواله هذه يشكك في حكمة سيف الدولة، ومصداقيته، ولعله في نظره لم يعد مؤهلا لحمل المسؤولية.

يشرع الشاعر في هذه الأبيات المغلّفة بالجمال الشعري في تحقيق الشرط الأول، وهو النظر بغضب إلى ابن عمّه الذي يبحث عن عيب يعيب به أبا فراس فلا يجد، بل هو لا يميّز بين الناس أو الأشياء، ولا يملك حكمة، ولا بعد نظر في التعامل مع الآخرين، فهو يبيت سوء النية لأبي فراس منذ زمن؛ أي منذ ولايته على الشام، وهو غير وفي؛ لأنّه لا يبادله المحبة، ولا يعمل على تخليصه من الأسر مع أنّ الشاعر كان دائم الوفاء له، ومن ثّم، فهو لا يقدّر الناس حقّ قدرهم على حد قول الشاعر.(٤٣)

يُخفي هذا الشعر أمرا هاما أُضمر فيه، وهو أنّ سيف الدولة في كثير من الأحيان لا يرضى بالمنافسة، ولا بالتعددية، ولا الاعتراف بوجود غيره، حتى لو كان هذا الغير من صنيع يديه، ومن أقرب الناس إليه، فيجب أن يُشكّل مَن حوله بالشكل الذي يريد، وبالحجم الذي يريد، ولا يجوز للآخر أن يكبر أو يتمدد، فإن هو فعل، فهو خائن، والإلغاء والنفي ينتظرانه، ولعل أبا فراس كان يشعر بذلك كلّه في قرارة نفسه،

(٤٣) انظر بقية القصيدة.

ومن قبل أن يؤسر، ولم يكن يدري كيف يتصرّف إزاء كلّ هذا في ظلّ حرصه على العلاقة الطيبة بينه وبين كافله ومربيه، فلجأ إلى المداراة، مشكّلا نسقا مضاداً يتحرر من خلاله من سلطته. قال:

فلما حالتِ الأعداءُ دونـــــي وأصبحَ بيننا بحـــــرٌ ودَربُ

ظَلِلتَ تُبـدِّلُ الأقوالَ بعـــــدي ويَبْلغني اغْتيابُكَ ما يُغـــبُّ

فقلْ ما شئتَ فيَّ فلي لســـــانٌ مَليٌّ بالثناءِ عليكَ رَطـــــبُ

وعامِلْني بإنصافٍ وظُـــــلمٍ تَجدْني في الجميعِ كما تُحـــبُّ(٤٤)

ينتقد الشاعر سيف الدولة مرّة أخرى في ثوب من الفن الجميل، ويعاتبه عتابا مرّاً؛ لأن من يبدّل كلامه، ويستغّل غيبة صديقه وابن عمه وفارسه، المدافع عنه والمحب له، بل يغتابه، لا يؤمن جانبه، ولعلّ المقارنة بين فعل الأميرين تزيد من تفوّق أبي فراس، فهو على الرغم من كل ما سبق ما زال على وفائه لسيف الدولة، يقابل الإساءة منه بالحسنى، وهذا تأنيب آخر له، وتبكيت لأخلاقه، فمثل هذه المقارنة بين الرجلين أبانت عن أخلاق كلّ منهما، ولما كان الشاعر يمثّل المؤسسة الفكرية هنا، إضافة إلى كونه ابن عمّ سيف الدولة، فقد وظّف شعره أحسن توظيف في نقده للآخر، وكشف عيوبه. قال:

فلما بعْدتُ بدت جفـــــوةٌ ولاحَ من الأمر ما لا أُحـــــبْ

فلو لم أكنْ بك ذا خبـــــرةٍ لقلتُ صديقُكَ من لم يَغِـــبْ(٤٥)

يتهم الشاعر ابن عمّه بالغدر لكنه يفعل ذلك في إطار من العتاب الرقيق، فمجرد أن غاب الشاعر في أسره عند الروم أبدى له جفوة، وتنكّر له، وكأنه كان ينتظر هذه الفرصة من قبل، ومثل هذا لا يليق بأمير جليل كسيف الدولة. قال أيضا:

---

(٤٤) ديوانه، ج٢، ص: ٢٩.

(٤٥) المصدر السابق،ج٢، ص: ٢٧.

وما هو إلا أن جرت بفراقنـــا يد الدهر حتى قيل: من هو حــارثُ

يذكّرنا بعد الفراق عهـــوده وتلك عهود قد بلين رثائـــثُ(٤٦)

وقال:

نسيبُكَ مَن ناسبْتَ بالوُدّ قلبَـــهُ وجارُكَ مَن صافَيتَهُ لا المُصاقِـبُ

وأعظمُ أعداءِ الرِّجالِ ثِقاتُهـــا وأهوَنُ من عادَيتَهُ مَن تُحـــاربُ

وشرُّ عدوَّيكَ الذي لا تُحـــاربُ وخيرُ خليليْكَ الذي لا تُناسـب(٤٧)

يصل الغضب واليأس بأبي فراس إلى أن يعيد النظر في العلاقات، وما يترتب عليها من صدق المودة، كل ذلك في إطار من الحكمة الجميلة معرضا بابن عمّه، فليس النسيب، أو الجار القريب إلى النفس والمخلص، هو من تربطك به علاقة نسب حقيقية، أو قرب المكان، بل الأمر أبعد من ذلك؛ لأنّ الأصل في العلاقة الحبّ والمودة، وليس القرابة، أو المكان، ويزيد الأمر صراحة في البيت الثاني، إذ يعلن عن وجود عداوة من قِبل سيف الدولة، رغم ما كان يضمره له من حب، وثقة، من هنا؛ فإنّ عداوة الذين نحبهم، ونثق بهم هي الأكثر إيلاماً، أما العدو الحقيقي الذي يواجهنا بعداوته، فهو الأقل خطراً؛ لأننا نعرفه، ونستعد له.إنّه لا يسمي سيف الدولة في هذه الأبيات، لكنه يُشير له بطريقة غير مباشرة. قال:

بمن يَثِقُ الإنسانُ فيما يَنوبـــُهُ ومن أينَ للحرّ الكريمِ صِحـــابُ

وقد صارَ هذا الناسُ إلا أقلَّهـــمْ ذئاباً على أجسادهنَّ ثِيـــابُ

تَغابيتُ عن قَومي فظُنّوا غَبـــاوةً بمفرِق أغبانا حصىً وتـــرابُ

ولو عَرفوني حقَّ معرفتي بهـــمْ إذاً عَلموا أني شهدتُ وغابـــوا

وما كلُّ فعَّالٍ يُجازَى بفعْلـــه ولا كلُّ قوَّالٍ لـديَّ يُجـــابُ

وربَّ كلامٍ مرَّ فوقَ مَسامعـــي كما طنَّ في لوحِ الهَجيرِ ذُبـــابُ

إلى اللهِ أشكو أنَّنـــا بمنـــازلٍ تحكَّمُ في آسادِهنَّ كـــلابُ

تمرُّ الليالي ليس للنَّفعِ مَوضـــعٌ لديَّ ولا للمُعْتفينَ جَنـــابُ(٤٨)

---

(٤٦) نفسه، ج٢، ص٥٦.

(٤٧) نفسه، ج٢، ص:٢٠.

الحديث عن الذئاب هنا هو حديث عن الغدر والزيف والخداع، وكلّ ذلك موجّه إلى سلطة الآخر(القوم) التي كشفت عن غدرها بالشاعر علناً، ولم يعد ينفع معها إخفاء أو مراوغة؛ لذا ما دام الأمر كذلك، فلتكشف كلّ الأوراق، ولتبين كلّ الحقائق، فهو يعرفهم حقّ المعرفة في حين أنّهم جاهلون به، وهو في المحافل موجود، في حين أنهم غائبون عنها، وهو لا يستمع إلى الواشين، ويجازي الناس بأفعالها لا بأقوالها، في حين أنهم ينصتون لهم، ويعملون بمشورتهم، وفي هذا انتقاد كبير، وهجاء مرير لمن يقود هذه السلطة، هاهنا إشارة إلى أن المقصود بقائد السلطة قد يكون سيف الدولة نفسه، وقد يؤيد هذا إلحاحه على اقتران المتنافرات من الألفاظ اللغوية في صفة كل من الأميرين من خلال المقارنة بين سلوك كل منهما، فهو شكل من صراع الأضداد من الناس، فقد تابع قائلاً:

وأفعالُــهُ للراغبيـن كريمــةٌ وأموالُهُ للطَّالبيـنَ نِهـــابُ
ولكنْ نَبا منهُ بكفّـي صـــارِمٌ وأظلمَ في عينيَّ منهُ شِهـــابُ
وأبطأ عني والمنايا سَريعــةٌ وللموتِ ظُفرٌ قد أطلَّ ونــابُ(٤٩)

يُحدث الشاعر في هذه الأبيات مفارقة جديدة عندما جعل سيف الدولة كريما معطاء مع الآخرين، في حين هو ليس كذلك مع فارسه وابن عمّه وربيبه، ولاسيما مع ما يعانيه في الأسر من جراح النفس والجسد، بل هو مهدد بالموت - كما يقول- وقد عبّر عن قرب الموت منه بالانزياح اللغوي في جعله كالوحش الذي أبرز ظفره ونابه كناية عن قرب اقتناصه له، فلقد انزاح الشاعر بالمنايا والموت، فتعامل معها على أنها كائنات حية، وبذلك صنع استعارة مثيرة "فدرجة شاعرية الاستعارة تزداد كلما صادفت أشكالا انزياحية مورفولوجية أو تركيبية".(٥٠)

---

(٤٨) نفسه، ج٢، ص: ٢٢.

(٤٩) نفسه، ج٢، ص: ٢٤.

(٥٠) هنريش، (بليث هنريش)، البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العمري، إفريقيا الشرق – المغرب، ١٩٩٩.ص:٨٦.

يرى الشاعر أن سلوك سيف الدولة معه غريب عن عدله وكرمه، ومن ثّم يتهمه بالتقصير معه خاصة، ربما لغاية في نفسه؛ لأنّ هذا التقصير ليس من طبعه، وهذه الأخلاق غريبة عنه. قال:

أقمتُ بأرضِ الرومِ عامينِ لا أرى منَ الناسِ محزوناً ولا مُتصنِّعــاً

إذا خِفتُ من أخواليَ الرومِ خطّــة تخوَّفتُ من أعماميَ العُربِ أربعا(٥١)

ما رآه الشاعر من أعمامه جعله يتذكّر أنّ الروم هم أخواله، فهناك من استدلّ بهذا البيت على أنّ والدته كانت رومية، لقد بات يرى أعداءه الروم الذين قارعهم سنوات طوالا، وما زال يقيم في أسرهم، أكثر أماناً، وأقلّ أذى من أقربائه وأبناء قومه الذين حارب لأجلهم، ودفاعاً عنهم، وهذه مفارقة أخرى عظيمة تصوّر مدى إحساس الشاعر بالغدر والخيانة من قبل قومه، حتى بات هذا الشعور مسيّطراً عليه، فبات يكرر ألفاظا بعينها في معظم قصائده. قال:

كثُر الغدرُ والخيانةُ فــي النّــا س فما انْ أرى صديقاً صـدوقـا

قلَّ أهلُ الوَفاءِ واتَّبعَ النـــا سُ منَ الغَدْرِ والجفـاءِ طريقــا

لا رعَى الله يا خليليَّ دهـــرا فرّقْتنا صروفُــه تفـريقـا(٥٢)

إنّ تكرار كلمة الغدر مرتين في بيتين متتاليين، وفي معظم رومياته لم يأت من فراغ، بل لإحساسه بغدر الآخرين به، وإصرارهم عليه في مقابل إخلاصه ووفائه لهم، فهذه الثنائية الضدية كما غيرها من لغة التضاد غالبة على شعر الروميات؛ لأنها تصف موقفه في مقابل موقف ابن عمّه منه، فتعكس موقف التضاد والتنافر بين الرجلين، فلغة الروميات في كثير منها مبنية على أساس التنافر في علاقة الأميرين في الواقع كما بدت من خلال شعر أبي فراس.

تمثّل الآخر المخالف لأبي فراس في رومياته أيضا في أعدائه الروم، فقد خاطبهم خطابا غاية في الرجولة، والتعالي عليهم، من منطلق

---

(٥١) ديوانه، ج٢، ص:٢٤٧.

(٥٢) المصدر السابق، ج٢، ص: ٢٦٨.

الاعتزاز بنفسه وعروبته، مهددا إياهم، وهو ما زال أسيرا عندهم كما في قوله:

أتزعم ياضَخمَ اللَغاديدِ أَنَّـــنا وَنَحنُ أُسودُ الحَربِ لا نَعرِفُ الحَربا

فَوَيلَكَ مَن لِلحَربِ إِن لَم نَكُن لَهـا وَمَن ذا الَّذي يُمسي وَيُضحي لَها تِربا

وَمَن ذا يَلُفُّ الجَيشَ مِن جَنَباتِـهِ وَمَن ذا يَقودُ الشُمَّ أَو يَصدمُ القَلـبا

وَوَيلَكَ مَن أَدى أَخاكَ بِمَرعَـشٍ وَجَلَّلَ ضَرباً وَجهَ والِدِكَ العَضـبا

وَوَيلَكَ مَن خَلّى اِبنَ أُختِكَ موثِـقاً وَخَلّاكَ بِاللَقّانِ تَبتَدِرُ الشِعبـــا

أَتوعِدُنا بِالحَربِ حَتّى كَأَنَّـــنا وَإِيّاكَ لَم يُعصَب بِها قَلبُنا عَصبـا

لَقَد جَمَعَتنا الحَربُ مِن قَبلِ هَـذِهِ فَكُنّا بِها أُسداً وَكُنتَ بِها كَلبـــا(٥٣)

هذه اللغة جديدة على أبي فراس في رومياته التي سبق الحديث عنها، فهو يهدد ويتوعد، وشعره يعجّ بكلمات قاسية حينا، ونابية حينا آخر، ولا غرابة في ذلك، فهو يرد على عدوه الرومي الذي أثاره بقوله:إنكم معشر العرب لا تعرفون الحرب، فجاءت هذه القصيدة ردا عليه(٥٤)، مؤكدا معرفة العرب الأكيدة لها، وإتقانهم إياها، مثبتا ذلك بالدلائل والبراهين، لا فقط بالتهديد والوعيد، وذلك من خلال طرح أسئلة كثيرة عليه كلاهما يعرف الجواب عنها إمعانا في تحديه كما في قوله:

فَسَل بَردَساً عَنّا أَخاكَ وَصِهـرَهُ وَسَل آلَ بَردالِيسَ أَعظَمُكُم خَطـــبا

(٥٣) ديوانه، ج٢، ديوانه، ص:٣٦.

(٥٤) انظر مناسبة القصيدة، ج٢، ص: ٣٦.

وَسَل قُرقُواساً وَالشَمَيشَقَ صِهرَهُ وَسَل سِبطَهُ البَطريقَ أَثبَتُكُم قَلبـــا

وَسَل صيدَكُم آلَ المَلاينِ إِنَّنـــا نَهَبنا بِبيضِ الهِندِ عِزَّهمُ نَهـــــبا

وَسَل آلَ بَهرامٍ وَآلَ بَلَنـــطَسٍ وَسَل آلَ مَنوالَ الجَحاجِحَةَ الغُلبـــا

وَسَل بِالبُرُطسيسِ العَساكِرَ كُلَّهـا وَسَل بِالمُنَسطَرياطِسِ الرومَ وَالعُربـا

أَلَم تُفنِهِم قَتلاً وَأَسراً سُيوفُنـــا وَأُسدَ الشَرى المَلأى وَإِن جَمُدَت رُعبا(٥٥)

يلقي أبو فراس على عدوه أسئلة كثيرة كلاهما يعرف جوابها مكرراً أسلوب الاستفهام بوساطة فعل الأمر:(سل) تسع مرات متتالية بصورة صريحة ومباشرة، ومرة بواسطة همزة الاستفهام، لقد استفهم الشاعر في كل مرة عن أمر أو حادثة كانت للعرب مع الروم، محاولا إنعاش ذاكرة عدوّه الرومي بالماضي العريق الذي كان لأبي فراس، ومن معه من العرب في حروبهم وأعمالهم البطولية، التي كانت لهم مع الروم، مذكّـّرا إياهم بذلك الماضي الجميل الذي كان له مع قومه في محاربة الروم والانتصار عليهم، كل ذلك في إطار من جزالة الألفاظ وقوتها، وما يتناسب مع موضوعها الحربي من تهديد ووعيد، وحديث عن المفاخر والأمجاد. إنّ هذا الاستحضار المكثّف لأسماء قادة الروم ورجالاتهم وأسماء المواقع والحروب، يؤكد معرفة الشاعر وقومه بالحرب معرفة أكيدة.

يسهم تكرار كلمة في النص الشعري في تماسكه، وقوة وحدته العضوية، وإضاءة ما فيه من ظلمة، إذ إنّ تكرار كلمة (سل) أعطى الشاعر إمكانية طرح أسئلة عديدة عن أمور كثيرة، كل منها كان دليلا وبرهانا على بطولته، وبطولة قومه إذ جعل السامع يتوقع أمرا جديدا بعد كل تكرار؛ مما يجذب انتباهه، لكن الفائدة الكبرى ربما كانت بالقيمة

(٥٥) ديوانه، ج٢، ص:٣٧.

الجمالية التي يحدثها في بعض مواضعه، فهو يعبّر عن مشاعر الشاعر، ويعطي النص إيقاعا موسيقيا خاصا يتناسب مع انفعاله الكبير في مثل هذا الموقف، فهو أقرب ما يكون إلى الموسيقى الصاخبة التي تنسجم مع الغضب والثورة. وقد تنبّه القدماء على فائدة التكرار والغاية منه، فهو وليد ضرورة لغوية أو مدلولية توازن صوتي.(٥٦) وقال فيه ابن معصوم المدني أنه يكون لنكتة، ونكته كثيرة".(٥٧) ومما قاله فيه أيضا:

أما من أعجب الأشياء عـــلج يعرفني الحلال من الحرام
وتكنفه بطارقة تيـــــوس تبارى بالعثانين الضـــــخام
لهم خلق الحمير فلست تنلقـــى فتى منهم يسير بلا حـــــزام
يريغون العيوب وأعجزتهـــم وأي العيب يوجد في الحســـام
وأصعب خطة وأجل أمـــــر مجالسة اللئام على الكـــرام(٥٨)

شكّل الشاعر مع عدوه الرومي ثنائية ضدية جديدة، تُبرز كثيرا من أشكال الصراع بينه وبين الروم في ماضي الشاعر وحاضره، فهو العدو الذي صارعه مرارا وتكرارا في الماضي، وهو عدو الحاضر الذي وقع في أسره، وليس هذا حسب، بل إنّ هذا العدو يحاول أن يتحداه، ويقلل من شأنه، ومن أصله العربي، ويتطاول عليه بتعريفه إياه أمور دينه، لكن الشاعر البطل لا يأبه كونه واقعا بين براثن عدوه، وفي أسرهم، بل يرد على التحدي بتحدٍ أكبر، معتزا بأصله وبطولاته، مقارنا بينهم وبين قومه، فالقرم قرم أينما حل كما وصف نفسه غير آبه بعقاب أو موت.

---

(٥٦) الطرابلسي،(محمد الهادي الطرابلسي)، خصائص الأسلوب في الشوقيات، تونس: الجامعة التونسية، ١٩٨١. ص:٦٢.

(٥٧) المدني،(ابن معصوم المدني)، أنوار الربيع في أنواع البديع، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط١، بيروت:عالم الكتب. ١٩٦٩ ج٥.ص:٣٤٥- ٣٤٨.

(٥٨) ديوانه، ج٢، ص:١١٢

أما الحساد والشامتون، فقد شكّلوا مظهرا اجتماعياً ثالثا لصورة الآخر المخالف في شعر أبي فراس، حيث عانى الشاعر منهم كثيراً، فنراه يقول فيهم:

لِمن جاهدَ الحسَّادَ أجرُ المجـــاهدِ وأعجزُ ما حاولتُ إرضاء حـــاسدِ

ولم أرَ مثلي اليومَ أكثرَ حاســداً كأنَّ قلوبَ الناسِ لي قلبُ واجِـــدِ

ألمْ يرَ هذا الدهر غيري فاضـــلاً ولم يظفرِ الحسادُ قبلي بماجـــدِ

أرى الغِلّ من تحتِ النِّفاقِ وأجتَنـي منَ العسلِ الماذيِّ سُمَّ الأســـاودِ(٥٩)

الحسد من الصفات الاجتماعية المتغلغلة في حياة مَن يُطاردون الناجحين من الناس خاصة، وقد عانى منهم الشاعر كثيرا، فقد كان يراهم في كل مكان حوله، وهو يحاول إرضاءهم، لكنه يعلم علم اليقين أنه من المعجز إرضاء حاسد، ولعل الأمر كان أكثر من الحسد كما يجسّده البيت الأخير، إذ الغل والحقد يبدوان من خلال الكلام المعسول الذي يسمعه من هؤلاء الحاسدين والمنافقين.

لقد أبدى الشاعر غضبه من الحاسدين والشامتين محاولاً قهرهم بالرد عليهم قائلاً:

أَلا لا يُسَرُّ الشامِتونَ فَإِنَّهـــا مَوارِدُ آبائي الأُلى وَمَـــواردي

وَهَل أَنا مَسرورٌ بِقُربِ أَقارِبـي إذا كانَ لي مِنهُم قُلوبُ الأَباعِـــدِ

أَيا جاهِداً في نَيلِ ما نِلتُ مِن عُـلاً رُوَيدَكَ إِنّي نِلتُها غَيرَ جاهِـــدِ

لَعَمرُكَ ما طُرقُ المَعالي خَفِيَّـةٌ وَلَكِنَّ بَعضَ السَيرِ لَيسَ بِقاصِـــدِ

(٥٩) المصدر السابق، ج٢، ص:٨٢.

وَيا ساهِدَ العَينَينِ فيما يُريبُنـــي أَلا إنَّ طَرفي في الأَذى غَيرُ ساهِـدِ

غَفَلتُ عَنِ الحُسّادِ مِن غَيرِ غَفلَـةٍ وَبِتُّ طَويلَ النَومِ عَن غَيرِ راقِدِ(٦٠)

يكشف وجود أولئك الشامتين بأبي فراس، عن خلل كبير في العلاقات الاجتماعية السائدة آنذاك، ولاسيما في علاقته بأفراد عشيرته، إذ كان يشعر أنهم يتمنون له السوء غيرة وحسدا، من هنا، فهو يعلمهم درسا بكيفية الوصول إلى العلا التي يحسدونه عليها، فهو طريق يحتاج إلى التضحيات الكبيرة، والعزيمة الصادقة، لا يقدر عليه أي إنسان، ومن ثّم، فإنّ الميدان واسع للجميع، ولكل من يرغب في تحقيق المجد، ولا داعي إلى الانشغال بالحسد والشماتة، فهي أخلاق ضعاف النفوس، وهو يؤكد أنه ليس بغافل عن أعمالهم، ولا عن أخلاقهم، لكن ما يتمتع به من سمو أخلاقي يجعله يعلو عليهم، ويسمو فوق نفوسهم الضعيفة، فهو بالرغم من ألم الجرح يوجه رسالته إلى أقربائه، والواشين، والمحرضين على بقائه في الأسر، بأنه ما زال كما هو، في شجاعته وسموّه وإخلاصه لقومه؛ لعله في ذلك يستطيع دفع ما به من معاناة وألم، ونسيان ما لحقه من مشقات الإسار بتحقيق التميّز على الآخر، حتى وهو قابع في أسره في بلاد الروم. قال:

مَن كان سُرَّ بمـــا عَـــرا ني فليَمُتْ ضُـرّا وهَـــزْلا

ما غضَّ منـّي حـــادثٌ والقَرْمُ قَرْمٌ حيـثُ حـــلاّ(٦١)

يشكّل الشاعر من جهة، والحساد والشامتون من جهة ثانية، ثنائية ضدية أخرى في الروميات تُظهر أشكالا مختلفة من الصراع بينه وبين الآخر، فقد كان الشاعر المحور الثابت في كل ثنائية، فهو الوفي الصبور في علاقته مع سيف الدولة، وهو يشكّل بذاتيته البطل الصامد في غياهب الأسر على المستوى المكاني، وهو الفاضل الماجد في كل مكان يحل به،

(٦٠) نفسه، ج٢، ص:٨٣.

(٦١) نفسه، ج٣، ص:٣٢٨.

فهو رجل يتحلى بكل القيم الإيجابية بينما الآخر لا يملك سوى القيم السلبية من الغدر والحسد والنفاق.

يكشف أسلوب التضاد في روميات أبي فراس، عن حالة الصراع والمعاناة التي كان الشاعر يعيشها مع الآخرين، إذ عانى من أعدائه الروم مثلما عانى من قومه العرب، ولاسيما أبناء قومه، كل ذلك لتميّزه وتفوقه، كما بدا في شعره، فدفع ضريبة كبيرة ثمنا لذلك كله، وهذه مفارقة كبيرة، إذ يُتوقع أن يكافأ الشاعر على صفاته وأخلاقه، وعلى ما قدّمه لقومه من انتصارات وتضحيات، لا أن يعاقَب بالتباطؤ في فكّ أسره، وإحاطة الحساد والشامتين به. لقد كشف صراع الشاعر مع أقطاب الوجود الإنساني السالبة في الحالات الثلاث عن الحياة التي عاشها، وأشكال المعاناة التي عاناها، فهم جميعا ينتمون إلى عالم الشر، وهو ينتمي إلى عالم الخير كما صوّر نفسه في شعره، وهذا التضاد أحدث استنفارا في وعي القارئ، وفي إدراكه، جعله أكثر تعاطفا مع الشاعر، وفهما لنفسيته.

أما الآخر الموافق لأبي فراس في روملياته، فقد تجلّى بصورة خاصة في أسرته، فقد قال شعرا في أخيه أبي الهيجاء يقطر حزنا ودموعا وألما، وفيه يبثّه لواعج الحبّ والشوق، مظهرا مقدار فقده له(٦٢)، وكذلك في أصدقائه وأبنائه.(٦٣) وكله شعر رقيق، تغلّفه اللغة العذبة، إلا أنه خصّ أمه بأجمل قصائده؛ لذا سأجعلها مثالا على الآخر الموافق له، فشعره فيها في غاية التأثر والتأثير، فقد قال مبديا تعاطفا كبيرا مع حالتها الحزينة لأسر ابنها:

وَإنَّ وَراءَ السَترِ أُمّاً بُكاؤُهـــا عَلَيَّ وَإن طالَ الزَمانُ طَويـــلُ

فَيا أُمَّتا لا تَعدَمي الصَبرَ إنَّـــهُ إلى الخَيرِ وَالنُجحِ القَريبِ رَسـولُ

وَيا أُمَّتا لاتُخطِئي الأَجرَ إنَّـــهُ عَلى قَدَرِ الصَبرِ الجَميلِ جَزيـــلُ

---

(٦٢) انظر ديوانه، ج٢، ص: ١٩، وص:٢٧١،

(٦٣) ديوانه،ج٢، ص:٢٠٦.

ويا أمتا صبرا فكل مُلمَّـــة تجلّى على علاتها وتَــزول(٦٤)

إن استخدام كلمة(أمتا) جاءت متناغمة مع أداة النداء(يا)، إذ إلحاق (ما) بالأم دليل على شدّة اللوعة تجاه مأساتها به. وهو في هذه الأبيات أعطى أمه أملا، فأوحى لها بزوال المصيبة عاجلا أم آجلا، وما عليها إلا أن تصبر وتنتظر، كما أنه بدا غير متبرم بالأسر كما كان يفعل في خطابه لسيف الدولة إنما لجأ إلى تخفيف وقعه كي يخفف عن أمه العذاب، وقد جاء تكرار النداء هنا للتعبير عن الحاجة الماسة إلى وجود أمه في ظل غربته، كما أعطى القصيدة جوا موسيقيا خاصا، لقد عبّر الشاعر عن مشاعر عظيمة، جعلته يفزع إلى أمه لما ضاقت بوجهه السبل في ظل محنة الأسر، وما ترتب عليها من آلام نفسية وجسدية، فهو من خلال مناجاتها يبوح لها بما لم يكن قادرا على البوح به إلى الآخرين، فأمه كانت ملاذه، ومأمن سره، إذ كانت تمثّل بالنسبة له عالم الصدق والوفاء، في مقابل عالم الزيف والغدر الذي لاقاه في علاقته مع الآخرين من أقربائه وغيرهم؛ فهو يصوّر التعاطف الكبير بينهما من خلال ديمومة البكاء من قبلها على حاله، وشدة حزنه لما تعانيه، فيحثّها على الصبر، مبينا لها فوائده الجمّة، ويطلب إليها أن تتأسى بمواقف نساء عظيمات عرفن بالتاريخ بصبرهن في مثل هذه المواقف، مثل أسماء بنت أبي بكر، وصفية بنت عبد المطلب كما في قوله:

أَما لَكِ في ذاتِ النِطاقَينِ أُســوَةٌ بِمَكَّةَ وَالحَربُ العَوانُ تَجــولُ

أَرادَ اِبنُها أَخذَ الأَمانِ فَلَم تُجِب وَتَعلَمُ عِلماً أَنَّهُ لَقَتيـــلُ

تَأَسّي كَفاكِ اللهُ ما تَحذَرينَـــهُ فَقَد غالَ هَذا الناس قَبلَكِ غــولُ

وَكوني كَما كانَت بِأُحدٍ صَفِيَّــةٌ وَلَم يُشفَ مِنها بِالبُكاءِ غَلــيلُ

وَلَو رَدَّ يَوماً حَمزَةَ الخَيرِ حُزنُها إِذاً ما عَلَتها رَنَّةٌ وَعَويــلُ(٦٥)

(٦٤) المصدر السابق، ج٢، ص:٣١٥

تحتاج قيم الشجاعة، والبطولة والثبات على المبدأ من طرف الابن، إلى قيم الصبر والتضحية والرضى من قبل الأم.؛ لذا يذكّرها ببطولاته السابقة، ويؤملها بالخلاص القريب من أسره، لعل ذلك يسليها، ويسلي نفسه المرهقة من متاعب الزمن، وقهره له. قال:

لَقيتُ نُجومَ الأُفقِ وَهيَ صَـوارِمٌ وَخُضتُ سَوادَ اللَيلِ وَهوَ خُـيولُ

وَلَم أَرعَ لِلنَفسِ الكَريمَةِ خِلَّـــةً عَشِيَّةَ لَم يَعطِف عَلَيَّ خَليـــلُ

وَلَكِن لَقيتُ المَوتَ حَتّى تَرَكتُهـا وَفيها وَفي حَدِّ الحُسامِ فُلــولُ(٦٦)

لكن أم أبي فراس توفيت وهو ما زال في أسره، فرثاها رثاء حارا منه قوله:

أَيا أُمَّ الأَسيرِ سَقاكِ غَيــثٌ بِكُرهٍ مِنكِ ما لَقِيَ الأَسيـــرُ

أَيا أُمَّ الأَسيرِ سَقاكِ غَيــثٌ تَحَيَّرَ لا يُقيمُ وَلا يَســـيرُ

أَيا أُمَّ الأَسيرِ سَقاكِ غَيــثٌ إِلى مَن بِالفِدا يَأتي البَشيـــرُ

أَيا أُمَّ الأَسيرِ لِمَن تُرَبّـــى وَقَد مُتِّ الذَوائِب وَالشُعــورُ(٦٧)

إنّ تكرار اللازمة بالدعاء لأمه بالسقيا- على عادة الشعراء- من غيمة ثابتة لا تبارح قبرها، هو محاولة منه إبقاء ذكراها حية من خلال السقيا الدائمة، ولعل القصد من طلب السقيا للقبور هو " أن تبقى عهودها غضّة من الدروس، لا يتسلّط عليها ما يزيل جدتها".(٦٨)إشارة إلى الحب الكبير الذي يكنه لها، والأسف على فقدها، مستخدما ألفاظا بسيطة تقرب

---

(٦٥) نفسه،ج٢، ص:٣١٦.

(٦٦) نفسه،ج٢، ص: ٣١٧.

(٦٧) نفسه،ج٢، ص:٢١٧.

(٦٨) المرزوقي،(أبو علي أحمد المرزوقي)، شرح ديوان حماسة أبي تمام،تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، القسم الثالث، ص:١٠٥٥.

من لغة الحياة اليومية، " فليست الألفاظ في بساطتها أو جلالها هي المحك، ولكنّ الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها الشاعر عليها هي التي تحدد قيمتها".(٦٩) فقد اختار الشاعر هذا الأسلوب لتصوير انفعالاته إزاء الحدث، وحرقته وأنينه على فقد أمه، التي ماتت، وهو ما زال أسيرا محروما من رؤيتها، وكذلك وهي تحمل ألمها العميق على حال ابنها، مما راكم أحزانه، وفطر قلبه وجعله متشظيا؛ فزاد ذلك في الكثافة الشعورية، وجعل هذه القصيدة خالدة على مرّ الزمن، لقد جاء تكراره متناغما مع ما هو فيه من حزن وأسى على فقدها، مما أعطى النص تكثيفا شعوريا ونفسيا، فكشف عن حالة الحرمان والشوق الشديدين، ولم يبق له إلا اسم (الأسير)، مثلما لم يبق لأمه سوى اسم (أم الأسير)، كل ذلك من باب تأكيده طول مدة الأسر، وغلبته على حياته. أفاد التكرار أيضا في إعطاء القصيدة إيقاعا خاصا تَناسب مع حالة الحزن والأسى التي يعيشها " فمعنى القصيدة يثيره بناء الكلمات كأصوات أكثر مما يثيره بناء الكلمات كمعانٍ، وذلك التكثيف للمعنى الذي نشعر به في أية قصيدة أصيلة إنما هو حصيلة لبناء الأصوات"(٧٠).

يبدو تعاطف الشاعر مع أمه كذلك من خلال إحساسه بما عاشته في حياتها من أحزان كثيرة، ووحدة كبيرة في حياتها، إذ توفي عنها زوجها وهي ما زالت في ريعان الشباب، وبعد ذلك حُرمت من فلذة كبدها القابع في أسره في بلاد الروم.قال:

وَقَد ذُقتِ الرَزايا وَالمَنايـــــا وَلا وَلَدٌ لَدَيكِ وَلا عَشيـــرُ
وَغابَ حَبيبُ قَلبِكِ عَن مَكـــانٍ مَلائِكَةُ السَماءِ بِهِ حُضــور(٧١)

(٦٩) درو،(إليزابث درو،) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة محمد الشوش، منشورات مكتبة منيمنة، بيروت، ١٩٦١. ص: ٨٩.

(٧٠) ماكليش،(أرشيبالد ماكليش)، الشعر والتجربة، ترجمة سلمى الخضرا الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٣،ص: ٢٣.

(٧١) المصدر السابق،ج٢، ص:٢١٧.

تظهر قوة العلاقة بينه وبين والدته في استخدام أداة النداء (أيا) التي هي لنداء القريب قربا ماديا ومعنويا، رغم بعد الشقّة بينهما، إشارة إلى عمق العلاقة التي تربطه بها في حياتها وموتها؛ إذ تحوّلت هذه الظاهرة اللغوية إلى ظاهرة وجدانية انفعالية تجسّد إحساسه بآلامها وفقده لها. قال:

أَيا أُمّاهُ كَم هَمٍّ طَويـــــلٍ مَضى بِكِ لَم يَكُن مِنهُ نَصيـــرُ
أَيا أُمّاهُ كَم سِرٍ مَصـــــونٍ بِقَلبِكِ ماتَ لَيسَ لَهُ ظُهـــورُ
أَيا أُمّاهُ كَم بُشرى بِقُربـــــي أَتَتكِ وَدونَها الأَجَلُ القَصيـــرُ
إِلى مَن أَشتَكي وَلِمَن أُناجـــي إِذا ضاقَت بِما فيها الصُـــدورُ
بِأَيِّ دُعاءِ داعِيَةٍ أُوَقّـــــى بِأَيِّ ضِياءِ وَجهٍ أَستَنيـــرُ(٧٢)

ولعل من أجمل الأبيات وأكثرها حملا للمشاعر الصادقة نحو أمه قوله فيها:

كأني أنادي دون ميثاءَ ظبيـــةً على شَرَف ظمياء جللها الذعــرُ
تجفل حينا ثمّ تدنو كأنمـــــا تنادي طلا بالواد أعجزه الحضرُ(٧٣)

يجسّد الشاعر علاقته بأمه وعلاقتها به، مستحضرا مشاعرها وعذاباتها وهو بعيد عنها، فيشبهها بظبية تنادي طليها، البعيد عنها، وبينهما حائل يحول دون التقائهما، فهو في أسفل الوادي وهي على الشرف، في أعلى الجبل، إنها متعطشة إلى ضم ابنها، لكن الخوف يسيطر عليها:(جللها الذعر) و(تجفل حينا)، فهذه المشاعر المحتدمة العارمة عند الأم المحرومة من ابنها تجسّد حالة الحب والتعلق بأمه، كما تعكس الحزن والألم نتيجة لبعدها عنه.

تختلف طريقة بناء اللغة في شعر أبي فراس الذي قاله في والدته عن لغته في مخاطبته الآخر المخالف له، فقد كان هناك حازما شديدا يصل في لغته أحيانا حدّ القسوة، أما شعره في والدته فقد بدا فيه عاطفيا جدا، وألفاظه في غاية الرقة والعذوبة، وكذلك في غاية البساطة، إلا أنها

(٧٢) نفسه،ج٢، ص:٢١٧.

(٧٣) نفسه، ج٢، ص:٢١١.

كانت معبّرة عن الحدث تعبيرا تجعل متلقي هذا الشعر يتعاطف معه ويتحسس مأساته، فهناك تنافر كبير بين اللغتين، إذ تعكس اللغة صورة الشخصية، فلغته وشخصيته يتماسان مع الموقف الذي يكون فيه، فهي في معظمها جمل إنشائية، فالنداء والدعاء والاستفهام إضافة إلى أسلوبي التكرار والحوار جميعا كانت الغالبة على بنائية اللغة في شعره الذي قاله في رثاء أمه، حتى يحقق الهدف من بكائيته عليها، وهي تتناسب مع مناسبة القصيدة بما فيها من بوح وأنين، فهي لغة بكائية حزينة تصوّر فقْد أبي فراس ومحنته.

لقد كشفت روميات أبي فراس عن اعتزاز الشاعر بذاته، كما كشفت عن وجود صراع في علاقة الشاعر مع الآخر، وقد دفع هذا الشاعر إلى تشكيل محور خاص به، أو قُل: يتمرّكز حول ذاته، فأبان عن أخلاقه العالية، وأظهر سمو نفسه، وذلك من خلال التركيز على إعجابه بنفسه، الذي برز بصورة واضحة في الردّ على سيف الدولة، وحاشيته ممن كانوا يحرّضون على الشاعر، وكذلك في الردّ على أعدائه الروم، والحسّاد والشامتين، ولعله لجأ إلى ذلك لحفظ توازنه في ظل ظروف أسره، وفي ظلّ حاجته للوقوف في وجه أعدائه سواء من بني قومه، أو من الروم، وقد أظهر من خلال ذلك كله قدرته على المخاتلة، والتحايل على الآخر المخالف له، فأذاقه النقد اللاذع، وعرّض به، وسخر من تصرفاته، وأقواله كلّ ذلك في إطار من الفن الشعري الجميل والبليغ.كما كشفت الدراسة عن وجود صورتين للآخر، الأول: كان مخالفا له، وقد تمثّل في سيف الدولة، وأعدائه الروم، والحساد والشامتين، أما النوع الثاني، فقد كان موافقا له، وقد تمثّل في بعض أفراد أسرته، ولاسيما والدته.

لقد برزت صورة سيف الدولة في روملياته سلبية تسعى إلى تهميشه، بل إلغائه ونفيه، حيث الأنا الفحولية واحدة متفرّدة لا وجود لغيرها، إذ لم تسارع إلى تخليص الشاعر من أسره، ربما بسبب ما رأت من نجاحاته وتفوقه، من هنا قام الشاعر بتغليف كثير من شعره بالمدح أو العتاب الرقيق؛ إلا أنّه نفذ من خلال ذلك إلى نقده، والتعريض به بسبب تقصيره في حقّه، فصوّره في بعض الأحيان شخصية قمعية، تتقول على

لسانه مذ أصبح بعيدا عنها في الأسر، وتروغ إلى الواشين، وتستمع لهم، وتأخذ برأيهم، بل لقد تبدّى هذا الغدر في أبرز صوره حينما تقاعست عن افتدائه، وهو الجندي الذي قدّم لها كثيراً من الانتصارات، فتجاهلت هذا كلّه كما تجاهلت حقّ القرابة، ونسيت واجبها تجاه جنودها الأبطال، أما عدوه الرومي، فقد خاطبه خطابا قاسيا لا يخلو من شتم وتجريح، مظهرا استعلاء كبيرا عليه، غير آبه كونه واقعا في أسره، بل افتخر عليه ببطولاته، وذكّره بانتصارته وقومه عليه، وأما الحساد والشامتون، فقد بدا أمامهم صابرا قويا. لقد اتخذت من شعره في والدته مثالا على الآخر الموافق له، إذ صورها رمزا للوفاء والحب والإخلاص في مقابل رموز الغدر السابقة كما صورهم من خلال شعره.

لقد استطاع الشاعر إظهار ما يعتمل في نفسه من حزن وأسى ورفض من خلال وسائل فنية كثيرة منها:التضاد والمفارقة والرمز، فأما الأول، فقد غلب على لغة أبي فراس، فعبّر من خلاله عن التنافر بينه وبين الآخر المفارق له في السلوك والمواقف المختلفة. وأما المفارقة، فقد أعطت الشاعر فسحة كبيرة؛ لأن يقول ما يريد قوله بصورة بليغة ومؤثرة من تهكم وسخرية، وتجاهل العارف، وانتقاد لسلوك الآخر غير الموافق له، وبيان عيوبه، وأخطائه بصورة غير مباشرة في إطار من الفن الشعري الجميل. وقد أتاح له الرمز التصرّف بحرية في انتقاد سلوك الآخر، والتعريض بتصرفاته، دون أن يكون مضطرّاً إلى قول كل ما يريد قوله بصورة مباشرة؛ ولاسيما أنّه كان له عليه فضل التربية والرعاية، ومثل هذا الموقع كان يلزم أبا فراس -على الأقل أخلاقياً- الالتزام بأدب الخطاب الذي كان ظاهرا بصورة واضحة في رومياته رغم إحساسه بغدره به، وخيانته له.

أما شعره الذي قاله في أمه، فقد كانت أساليب النداء والدعاء والتكرار والحوار الغالبة على بنائية اللغة فيه، فهي لغة بكائية حزينة تصوّر فقْد أبي فراس ومحنته في وفاة والدته، فجاءت اللغة تعكس صورة الشخصية، فلغته وشخصيته تتناسبان مع الموقف الذي يكون فيه.

المصادر والمراجع

[١] ابن الأثير، عز الدين بن الأثير، *الكامل في التاريخ*، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩.
[٢] الأصفهاني، أبو الفرج الأصفهاني، *الأغاني*، دار الكتب، ١٩٦٣.
[٣] إيفانوكس، خوسيه إيفانكوس، *نظرية اللغة الأدبية*، ترجمة حامد أبو حامد، مكتبة غريب، د.ت،
[٤] البستاني، فؤاد أفرام البستاني، *أبو فراس الحمداني*، سلسلة الروائع، ١٩٢٨.
[٥] بكار، يوسف بكار، *عصر أبي فراس الحمداني*، نشر مؤسسة البابطين، ٢٠٠٠.
[٦] التنوخي، القاضي التنوخي، *نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة*، طبعة مرغليوث، لندن، ١٩٢١.
[٧] الجمحي، محمد بن سلام الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، شرح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٠.
[٨] الحفني عبد المنعم الحفني، *المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة*، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠.
[٩] الحمداني، أبو فراس الحمداني، *ديوانه*، جمع ونشر سامي الدهان، بيروت، ١٩٤٤.
[١٠]الحموي، ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، دار صادر، بيروت، د.ت.
[١١]خليل، إبراهيم خليل، *في النقد والنقد الألسني*، دار الكندي، إربد، الأردن، ٢٠٠٢.
[١٢]سليمان، مالك سليمان، وولفانغ أيزر، *التفاعل بين النص والقارئ*، علامات في النقد، مج٧، ج٢٥، ١٩٩٧، جدة- السعودية.
[١٣]شرف الدين، خليل شرف الدين، *أبو فراس الحمداني، فتوة رومانسية*، دار الهلال، بيروت، ١٩٨٢.
[١٤]أبو شريفة، محمد أبو شريفة، *شرح ديوان أبي فراس حسب المخطوطة التونسية*، نشر مؤسسة جائزة البابطين، ٢٠٠٠.
[١٥]درو، اليزابث درو، *الشعر كيف نفهمه ونتذوقه*، ترجمة محمد الشوش، منشورات مكتبة منيمنة، بيروت، ١٩٦١.

[١٦]الرباعي، عبد القادر الرباعي، *ثقافة النقد ونقد الثقافة*، عالم الفكر، العدد ٣، المجلد٣٣، ٢٠٠٥.
[١٧]الرويلي، ميجان والبازعي، سعد الرويلي، *دليل الناقد الأدبي*، المركز الثقافي، الدار البيضاء- المغرب، ٢٠٠١.
[١٨]العرجي، *ديوانه*، شرح وتحقيق خضر الطائي، ورشيد العبيدي، الشركة الإسلامية للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧٢، ص: ١١٥.
[١٩]عماد الدين، أبو الفداء عماد الدين، *تاريخ أبي الفداء*، علق عليه ووضع حواشيه محمد ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
[٢٠]الغذامي، عبد الله الغذامي، *النقد الثقافي*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب. ٢٠٠٢.
[٢١]الكيالي، سامي الكيالي، *سيف الدولة وعصر الحمدانيين*، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩.
[٢٢]ماكليش، أرشيبالد ما كليش، *الشعر والتجربة*، ترجمة سلمى الخضرا الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٣.
[٢٣]متز، آدم متز، *الحضارة الإسلامية*، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٩٦٧.
[٢٤]المدني، ابن معصوم المدني، *أنوار الربيع في أنواع البديع*، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط، ١ بيروت: عالم الكتب. ١٩٦٩
[٢٥]المرزوقي، أبو علي أحمد المرزوقي، *شرح ديوان حماسة أبي تمام*، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١،
[٢٦]معاوية، يزيد بن معاوية، *جمع صلاح المنجد وتحقيقه*، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٢.
[٢٧]المهدي، عبد الجليل عبد المهدي، *أبو فراس الحمداني حياته وشعره*، مكتبة الأقصى، عمان- الأردن، ١٩٨١.
[٢٨]هنريش، بليث هنريش، *البلاغة والأسلوبية*، ترجمة محمد العمري، إفريقيا الشرق – المغرب، ١٩٩٩.
[٢٩]اليحصبي، الإمام الحافظ أبي الفضل اليحصبي، *شرح صحيح مسلم*، تحقيق: يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ١٩٩٨.

The self and the other in Abu Feras Al-Hamdani's Poems

Dr. Amal Mohammad naser, and Dr. Ibraheem Hassan rababah
Jordan University
Jordan - Amman

Abstract. This study deals with the image of the Self and the Other in Rumiat Abi Firas Al-Hamadani. I attempt to reveal the extent to which Al-Hamadani reached in his admiration of himself. He looked down on family tragedies, injustice of relatives and the many envious people around him. This made him greatly proud of himself. He showed his refined personality. He also showed his ability to manipulate the Other who opposes him and showed him great criticism. As for the Other who agrees with the poet, such as some friends and a few relatives specially his mother, the poet showed sympathy and wrote gentle poetry about them.

Al-Hamadani was able to show his suffering and his pain. He also portrayed the image of the Other in various ways; the most important are paradox, symbolism and paradox. Paradox revealed the conflict between him and the others who oppose him. Symbolism gave the poet the opportunity to criticize freely without being direct. As for paradox, this style gave the poet free space to say whatever he likes. He used it to criticize the behavior of the Other indirectly in a poetic framework.